وفاء عمران عبد المجيد

السفر إلى الجنة

«رواية»

2016

الكتاب: «السفر إلى الجنة»

المؤلف: وفاء عمران عبد المجيد

تصميم الغلاف: الرقمية
مراجعة لغوية 1: أحمد البدوي
مراجعة لغوية 2: فازع دراوشة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي مسبق من المؤلف.

الطبعة الأولى 2016م
القدس - فلسطين
ISBN : 978 9950 8520 3 7

الرقمية
من فلسطين الى العالم
www. alraqamia. com

إهداء

إلى أبي الذي علمني القيم وأخذ بيدي إلى الطريق ومنحني الثقة المطلقة .

إلى أمي التي كانت خير أمَ والتي بفضل دعواتها لي نجحت.

إلى إخوتي وأخواتي وزوجي وأولادي.

إلى الوطن الذي أحزنني وجعه وأحزنني ألمه وحلمت برؤيته منتصرا نابضا بالحياة منذ أن أدركت أن هناك بقعة جميلة من العالم تسمى فلسطين .

وحدهم الشهداء الذين يروون الارض بدمائهم خالدون في السماء والارض

وهولاء. . . كيف يبيعون الوطن؟

هذه الرواية خيالية بشخوصها وأحداثها ورغم استنادها إلى الواقع الفلسطيني إلا انَها لا تمثل سيرة ذاتية لأي شخص من الاشخاص الظاهرين في الرواية، وأي تشابه في الاحداث أو الأسماء، فهو محض صدفة مطلقة وليس أكثر.

الفصل الاول

أذكر عندما توجهت إلى عيادة طبيب القرية بعد صلاة الظهر مسرعا وقلقا، كأنني أحمل هما يوازي الجبال مصطحبا زوجتي حليمة، وأذكر تماما عندما قال لي الطبيب الذي كان لا يحضر إلى القرية سوى ثلاثة أيام في الاسبوع:

– حسنا! إنها فعلا كبيرة في السن، لكن لا يعني ذلك أنه لا يمكنها الانجاب.

قال ذلك ثم رفع نظره إلى الأعلى حيث وقفت أنا، رجل في بداية العقد الخامس من عمره، تبدو عليه إمارات الفقر والتهلهل، واليأس والحزن يملأن وجهه، لكن عند سماعي كلام الطبيب فتر على وجهي ظل ابتسامة فقلت وقد بدت الفرحة من عيني:

– أحقا تعتقد ذلك؟

رد علي طبيب القرية وهو في حيرة من جزعي:

– نعم فقد رأيت الكثير من تلك الحالات المشابهة لحالة زوجتك، يجب أن تبتسم وتفرح أنَ الله سيرزقك بطفل بعد كل تلك السنوات العجاف ويجب أن تسأل الله أن يتمم حملها بخير وأن تلد لك طفلا بارا بك وبأمه اذهب يا رجل ولا تجعل للشيطان عليك سبيلا.

تهلل وجهي فقد مضت عدة أيام وأنا في حالة يرثى لها، فبالكاد كنت آكل طعامي، وفارق النوم جفوني، فمنذ أيام وزوجتي حليمة على غير طبيعتها، يكاد الطعام لا يصل فمها، وهي متعبة دائما، خلت أنها مصابة بمرض ما، فأصابني الهلع فنحن متزوجان منذ عشرين عاما قضتها حليمة معي بحلوها ومرها، حلوها في اتفاقنا وفهم احدنا للاخر ومرها في عدم انجابنا لطفل، هل حاولنا أن نفعل؟هل قصدنا عشرات الاطباء والمراكز؟ نعم فعلنا، وأنفقت الكثير على تلك المحاولات الفاشلة، حتى استسلمنا لليأس ورضينا أن هذا الحال مقدر لنا ولا يمكننا تغييره، لكن ما بالها منهكة وتعبة وتكاد احيانا تقولي: إنها قد تحمل جنينا في أحشائها ولكن العقل يدفعها إلى نفي ذلك، ولكن جارتنا «أم اسماعيل» بشرتها أنها قد ترزق بمولود، لقد تجاوزت الاربعين من عمرها، وقد بتنا أنا وهي نعتقد جازمين انه لن يكون لنا ولد، الآن الطبيب يؤكد ذلك ويؤكد أن كل تلك الاثار التي ظهرت عليها مؤخرا من تعب وارهاق لم يكن إلا آثار حمل.

تبسمت، وسألت نفسي وأنا في طريقي إلى بيتي المتواضع، المكون من حجرتين وأمامهما رواق كبير الحجم نسبيا إلى جانب مرفقات البيت وحديقة صغيرة، كيف يمكن أن تتغير حياتي بين ليلة وضحاها؟ كيف سمحتُ لنفسي يوما أن أيأس، أن أفقد قدرتي على الامل، أو أشك أن قدرة الله فوق كل شيء، وأنَ دعواتي وصلاتي، ادخرها الله لي لحكمة هو يعلمها، كم أشعر الآن بالاستحياء

أمامك يا الله، أني في لحظة ما يئست وغضبت وقارنت نفسي بغيري فنظرت إلى فلان وقلت لماذا رزقته البنين والمال وهو لا ينفك يعصيك؟! ونظرت إلى نفسي فوجدتني فقيراً ووحيداً، واعتبرت نفسي عابداً فمننت عليك بذلك، ولم أعلم أنك أعطيتني أكبر نعمة أن هديتني اليك، والآن تمُن علي بزينة الحياة الدنيا؟ أحقا سيكون لي ولد بعد كل تلك السنين من خيبة الأمل وقلة الرجاء واستهزاء الناس بي، وطمع أولاد عمي في تقاسم الأشياء القليلة التي أملكها، بت لا أصدق ذلك ولا أقوى على تصديقه.

عشت لاحقا تسعة أشهر كنت خلالها شديد الحرص على زوجتي حليمة، لقد ساعدتها في كل أعمال المنزل متى أتاح لي عملي الشاق في البناء ذلك، ونمت ليالي أتخيل الناس وهم ينادوني «أبا سمير» وسمير بجانبي هذه المرة ستتحول تلك الكنية إلى حقيقة، لقد دأب الناس على تسميتي «أبو سمير» مجازا منذ أعوام كثيرة، حلمت بسميرمرات كثيرة وتخيلت ملامح وجهه ورسمتها في عقلي مئات المرات، تارة ذي عيون زرقاء وشعر أشقر كجدته، وتارة أخرى أسمر بعيون عسلية كأبيه، حقيقة أنه سيكون لي ولد يحمل اسمي ويملأ علي حياتي ويمنحني أحفادا ملأتني بالسعادة ولكن من ناحية أخرى ملأتني بالقلق والخوف أيضا من أن أفقد ذلك الامل فيحدث خطب ما يفقد حليمة حملها، و تبا لذلك الشعور اللاإردي و الذي يخالطني دائما بفرحي، فأغدو قلقا من عدم إكتمال الفرحة، ويصور لي عقلي أن من غير المعقول أن تسير الأمور على ما يرام، كنت كثيرا ما أستيقظ فزعاً من أحلامٍ مزعجة، أرى فيها نسراً كبيراً يقف على تلة صخرية في صحراء قاحلة وينظر يمنة ويسرة، ثم يحلق في الهواء ويطير مسافة طويلة ومن ثم يهوي هبوطاً إلى الارض ويلتقط فريسة فأقترب منه لأنظر ما يحمل، فأجده ابني «سمير» فاستيقظ فزعاً، وأبدأ بالاستعاذة بالله من الشيطان ثم التفت إلى حليمة النائمة فأمرر يدي على بطنها و أيقظها وأسألها إن كانت تشعر بحركة الجنين أم لا، كانت تستشيط غضبا وتصرخ قائلة:

– إن بقيت هكذا فربما سأفقده من قلة النوم.

كنت أطيب خاطرها وأقول لها:

– لا، نامي «الله يرضى عليك».

يفارق النوم بعدها جفوني، فأقوم وأتوضأ ومن ثم أدعو الله أن يتمم لي ذلك الأمر، وأن أمسك بيد سمير وأحمله وألاعبه، ودام رجائي ودعائي أياماً طويلة، حتى كان اليوم الموعود، اليوم المنتظر، اليوم الذي سألتقي به بسمير وسأعرف كيف هو، كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل، عندما بدأت أوجاع حليمة، تبعتها من غرفة إلى غرفة في محاولة مني لتقييم الحالة، هل ستصمد الى الصباح، يجب أن أبحث عن مركبة تقلنا الى المستشفى، لكنها كانت تمسك بيدي وتقول: ليس الآن، أرجوك لا تذهب وتتركني وحيدة، قلت لها: سأنادي جارتنا، ولكن كانت تصرخ: لا، لاتفعل، لا تزعجها في هذا الليل ثم قالت لي والتعب بادي عليها:

– أبوسمير أشعر بآلام شديدة، يبدو أن ساعة الولادة قد حانت، هلاَ ناديت لي القابلة «الداية» .

انتفضت وهرولت مسرعا إلى القابلة نعيمة، ورغم إصراري على نقلها إلى المستشفى، إلا أن حليمة لم ترض بذلك وقالت أنها تشعر بعدم القدرة على الصمود حتى الوصول إلى المستشفى، الذي يبعد مسافة لا بأس بها عن قريتنا، بينما الداية نعيمة كانت تسكن بالقرب منا على أطراف القرية.

استيقظت الحاجة نعيمة خائفة على صوت قرعي المتواصل على الباب، وتناهى إلى مسمعي قولها:

– يا ساتر يا رب، أرجو أن يكون الأمر خيرا! .

شقت الحاجة نعيمة الباب شقاً صغيراً لا يظهر سوى نصف وجهها، بينما توارت هي وراء الباب وقالت:

– من بالباب؟

– أبا سمير، جارك.

تنفست الصعداء، ثم أطلت برأسها وقالت:

– أبو سمير لقد أرعبتني، ما بالك تقرع الباب هكذا؟ أتحسب أني صماء؟

نظرت إلي والتجاعيد تعلو جفونها وبدى واضحا استغرابها لجزعي وقلقي، وربما شعرت بقدومي ركضا في طريق مظلم فرددت عليها و صوتي يتهدج من القلق والخوف:

– أرجو المعذرة، ايتها الحاجة ولكن يبدو أن زوجتي في حالة مخاض، أرجو أن تساعديني، أرجوك هلاَ اتيتي الآن لمساعدتها.

أمهلتها بضع دقائق لتستعد ثم مشينا على قدر ما أستطاعت المشي القابلة نعيمة، كان بودي لو استطعت حملها حتى نصل أسرع، فأنا لا احتمل فكرة التأخر وحقا أني ناديت على جارتنا «أم عزيز» لتكون بجانب زوجتي، لكن ماذا لام عزيز أن تفعل؟ وصلت الداية نعيمة مسرعة إلى منزلي، في تلك اللحظة غادرتنا أم عزيز فابنها عزيز يبلغ من العمر شهر واحد فقط وهو يبكي بحرقة، عذرتها والتفت إلى نعيمة التي استبقتني الى زوجتي حليمة ثم صرخت في وجهي قائلة:

– حضِر الماء الساخن.

أسرعت إلى المطبخ ووضعت قدر الماء فوق شعلة موقد الغاز و مضت دقائق غليان الماء كأنها ساعات، امتلكني القلق والخوف أن أتأخر، حتى كدت أن

أختنق، نظرت إلى القدر مرات ومرات وصرخت غاضبا:

– ألن يغلي هذا الماء أبدا؟

عند حدوث أول فقاعة ماء حملت القدر بأقصى سرعة، حتى انه لسعني وما كنت لأشعر بذلك.

أخذت القابلة نعيمة القدر، ونظرت إلى الماء وتحسست حرارته، ثم نظرت الي نظرة عتاب، وقالت بلهجة آمرة:

– عد واغلِ الماء جيدا، انتظر خمس دقائق بعد غليانه ثم أحضره.

تنهدت بحسرة، وحملت القدر وأرجعته ليغلي، وبعد عشر دقائق أعدته إليها، جرتني خارجا وأمرتني أن أنتظر خارج الغرفة وأقفلت الباب، وقفت في الخارج أفرك يديَ، وأتوجه إلى الله بالدعاء، جلست أحيانا ووقفت أحيانا أخرى، مشيت خارج البيت خطوات ثم عدت مرة أخرى أمام الغرفة التي فيها زوجتي، بعد مضي ساعتين - من مجيء القابلة - التي شعرت أنهما أطول ساعتين في حياتي مررت خلالهما بأبشع أنواع الهواجس، وأشد لحظات الأمل والرجاء، سمعت صراخ زوجتي فعادت لي الحياة من جديد، يا الله، هل وصل سمير؟ ثم قفزت إلى رأسي فكرة ماذا لو كانت سميرة؟ لماذا لم أفكر سابقا أنها قد تكون مولودة وليس مولودا.

وعاتبت نفسي لماذا لم أفكر سابقا بذلك؟! لماذا حتى لم أختر اسم أنثى؟!، وبدت الأمور بالنسبة لي مختلفة ثم تذكرت الآية الكريمة «رب إنيَ وضعتها أنثى وليس الذكر كالآنثى». لقد قفز تفكيري إلى خروج ابنتي من بيتي، وتخيلت عودتي وحيداً، لكن كل ما أتمناه ان يكون لي مولود، بغض النظر عن كونه أنثى أم ذكرا.

فتحت الداية نعيمة الباب، فشد صرير الباب انتباهي، ثم أطلت برأسها و بدت صامتة بعض الشيْ، اعتلى القلق وجهي من جديد، سألتها :

– ما وراءك؟، ماذا حدث؟

نظرت إلي نعيمة بحزن بالغ وقالت:

– يبدو أن المولود ضعيف جدا، لا أدري إن كان سيعيش ام لا، سننتظر قليلا ربما تصدر عنه إشارة.

دخلت إلى الغرفة كالمجنون وامسكت بولدي ولففته جيدا وأذنت في أذنيه، وغطت الدموع الساخنة وجه الصغير، لكن لم تصدر من الصغير أي حركة، دعوت الله كثيرا ثم جلست بعد ساعة من العناء، سمع الجميع صوتا خافتا كان ضعيفا حتى الموت لكنه مسموع، إنها الحياة دبت في أوصاله. قفزت في الهواء فرحا ومن ثم رفعته إليَ من جديد، وأذنت في أذنه مرة اخرى، ولكن هذه المرة بصوت أعلى وبدموع مختلفة، دموع الشكر والثناء.

في صباح اليوم التالي توافدت علينا وفود المهنئين والمهنئات، لقد طال انتظارنا لسمير كثيرا، ولقد شاركنا فرحتنا معظم أهالي القرية، لقد شعرت بالحرج، لكل تلك الهدايا، ورغم كونها هدايا بسيطة ورخيصة الثمن إلا إنها تركت انطباعا جيدا عن حب الناس وتعاونهم معنا، كما دأبت جارتنا أم عزيز على الحضور صباح كل يوم من الأسبوع الذي تلا ولادة سمير لمساعدة زوجتي في أعمال المنزل والعناية بالصغير، كانت زوجتي تعاتبها على ذلك، فهي أيضا لديها مولود حديث يبلغ من العمر شهرا، لكن لم تكن لتسمع وكانت تقول:

– هذا واجب الجيران نحو بعضهم البعض.

نحن جيران، لكن هناك فرق شاسع بيننا وبين أبي عزيز من حيث التصرفات والمفاهيم لقد امتلأ بيتهم دائما بالصراخ، فأبو عزيز يعاتب زوجته دائما على إنجابها لثلاث بنات قبل أن يرزق بعزيز. وقد عرف عنه قسوته على زوجته وأيضا هي لم تكن أصلح حالا منه، فقد كانت كثيرة الصراخ واللعان وندب

الحظ، و كثيرا ما كانت تفرغ غضبها من معاملة زوجها على بناتها، فتضربهن على أقل خطأ بريء طالما صدر من الأطفال.

لكن هذا لم يمنع سمير من أن ينشأ مع عزيز، لقد تعلقا ببعضهما منذ الصغر فكانا يلعبان سويا وكثيرا ما كانت تحضر أم عزيز «عزيزا » إلينا وتتركه لساعات لتنصرف إلى مهامها فقد رزقها الله بعد سنة من ولادة عزيز بطفلا أخر. . لم نبد ممانعة، فعزيز وسمير يتفقان، وكنا ننظر إليهما وهما يلعبان ونبتسم بفرح، لكن سرعان ما تنقلب الامور عندما يسارع عزيز إلى ضرب سمير وأخذ الألعاب منه، فيبكي سمير ويحاول الثأر.

وأيضا كان يحاول الثأر من الاشرار عندما أضحت لعبته هو وأولاد الجيران حرب صغيرة ما بين الاحتلال والمقاومين، كان يصر على أن يكون هو الفلسطيني المقاوم، بدرت منه أحيانا أسئلة عن ماهية الاحتلال، لكن لم تكن أسئلته تعني شيئا ولم تكن جدية، إلا ذاك اليوم عندما اصطحبته يوم جمعة إلى الصلاة في المسجد وكان على أبواب دخول المدرسة وقف بجانبي وصلينا مع الامام كان يتمتم ويحرك شفتيه أثناء الصلاة كما يفعل الكبار، فدعوت الله أن يقبله قبولا حسنا، وأن يجعله من عباده الصالحين.

أثناء خروجنا من الصلاة حدثت مشادة كلامية بين رجلين أمام المسجد كما كانت تجري العادة أحيانا ولا أعتقد أن تلك القلوب كانت تخشع في صلاتها، أو تشعر بما تمليه علينا صلاة الجماعة من نبذ الخلافات وترك التفاهات، احدهما نعت الثاني بأنه ليس من البلدة وانه إبن مخيم تلك الجملة، تركت انطباعا ما في نفس سمير فسألني أثناء عودتنا:

– ما المقصود بالمخيم؟

في البداية لم أعرف ماذا أقول لطفل في عمره عن مأساة الشعب الفلسطيني

والتي أنتجت المخيمات وكيف سأشرح له الاساليب البشعة التي طرد منها الناس من بيوتهم ومزارعهم، وكيف انتقل هؤلاء من قصور وبيارات إلى مساكن صغيرة وضيقة تدعى بالمخيمات لكن أمام إلحاح سمير كان لا بد لي من الكلام.

بدأت أروي له القصة محاولا تبسيطها ما استطعت إلى ذلك سبيلا، فقلت له:

- بدأت الحكاية عندما هاجر الألأف من اليهود إلى فلسطين، والذين ارادوا أن يوجدوا دولة لهم تقوم على أساس الدين، بعد حضورهم وبدعم من جانب البريطانيين الذين كانوا يحتلون فلسطين آنذاك، قويت شوكتهم وتشكلت لديهم عصابات عملت على قتل الناس وترويعهم وكانت من الوحشية لتخيف أي إنسان.

قاطعني سمير:

- ألم يجدوا من يصدهم؟

- بلى يا بني، لقد وجد الكثير من المجاهدين الذين حاربوا المحتلين ومنهم عز الدين القسام وعبد القادر الحسيني.

- ثم ماذا حدث؟

- لقد حدث ان قامت تلك العصابات بالهجوم على بعض القرى، فقتلوا أهلها مما جعل بعض سكان القرى المجاورة يصابون بالهلع، ويتركون بيوتهم وقراهم ويهاجرون إلى أماكن مختلفة، منها ما كان داخل فلسطين، ومنها ما كان خارجها، مكث الناس في العراء، فأحضر لهم متبرعون خيما ليبيتوا فيها إلى حين عودتهم إلى بيوتهم، لكن للأسف لم يعودوا وتحولت تلك الخيم إلى غرف مسقوفة وسكن الناس في تلك الأماكن لسنوات وسنوات.

- وبيوتهم ماذا حل بها؟

– لقد منعوا من الدخول إليها، وتحولت القرى إلى مطارات، أو مساكن للناس الغرباء.

– يا الله! لا أكاد أفهم كيف حدث ذلك؟! وكيف صمت الناس عن كل ذلك الظلم؟! وأين كان العالم؟!.

– إنها قصة طويلة يا سمير، فلا تشغل نفسك بها.

****

الفصل الثاني

كيف يمكنني أن لا أشغل نفسي بها، وحتى إن نأت بنفسي، فكيف أهرب من قدري ومن عدوي، ومن طمعه بأرضي، ربما كانت تلك المشاجرة التي وقعت أمامي، وسمعت فيها اسم مخيم، هي أولى معرفتي بمأساة الشعب الفلسطيني، كان ذلك يوم جمعة، عندما رافقت أبي إلى مسجد القرية لأداء صلاة الجمعة في ذلك اليوم ألبستني امي ثوبا كان أبي أحضره لي من عمرة لله، قام بها حتى قبل ولادتي، ودعا فيها الله أن يرزقه ولدا وأن لا يجعله فردا، وللتأكيد على حسن ظنه بالله مجيب الدعوات، أحضر معه هذا الثوب الطويل، التي يرتديه الناس في البلدان الخليجية وقبعة صغيرة من الصوف المحبوك الأبيض، فلبستهن وبدوت مزهوا بنفسي ثم رافقت أبي إلى المسجد.

عندما غادرنا المسجد أذكر سؤالي لأبي عن معنى كلمة مخيم، لقد فسر لي أبي المعنى، ولكن ترك لدي الفضول لأعرف أكثر، تلت السنون لاحقا، وأنا أقرا وأسمع وأشاهد كل ما يتعلق بمأساة الشعب الفلسطيني، وقرأت أيضا عن القادة الفلسطينيين، وعن المشاكل والحروب التي خاضتها الشعوب العربية، والهزائم التي منيت بها، تلك المآسي التي حلت بالشعب الفلسطيني، وذلك الحزن الذي شعرت به يلف فلسطين، ويلف قلبها القدس لم يترك لي خيارا أخر سوى ان أكون الطالب المجتهد، الجاد دائما في دراسته وافكاره وحركاته، لقد قضيت سنوات الدراسة وأنا أطالع وأخطب في الإذاعة المدرسية عن كل حادثة مرت في تاريخ فلسطين، وعن كل قائد شهيد ضحى بماله واستقراره والحياة الرغيدة وسكن الجبال ليدافع عن الوطن، في كل مرة ألقيت فيها كلمة مدرسية عن ذكرى النكبة أو ذكرى النكسة أو يوم الأرض أو الاستقلال، كان الطلاب ينخرطون في تصفيق حاد، لكن بعضهم وقف بلا مبالاة أو حماس نحو أي فكرة أو خطاب.

الشخص الأول الذي كنت أطلب رأيه في كلمتي المدرسية كان عزيزا، ورغم أنه لم يزد عن كلمة «جيد» للتعليق على الخطاب إلا أني لم أكن أجد راحة الا عند إلقائها أمامه أولا، قال لي ذات مرة :

– انها مقالة جيدة، يمكنني أن أكتب أفضل منها.

– لماذا لا تفعل إذن؟.

كان يحني رأسه إلى الخلف ويتنهد ويقول:

– ليس لدي الوقت.

أيضا كان لدي مستشارون آخرون، فمرعي فند كل كلمة في الخطاب، وفتحي أعطى الإيجابيات والسلبيات، أما الرأي الأهم من بينهم والذي كنت أعتز به أكثر فكان رأي رامز.

كنت وأصدقائي الأربعة (عزيز وفتحي ورامز ومرعي) مقربين إلى بعضنا البعض، فأنا وعزيز وفتحي ومرعي في السنة الدراسية عينها، بينما كان يكبرنا رامز بأربع سنوات، إلا أن عزيزا كان أقربهم لي فهو جاري وصديقي منذ أيام الطفولة، سخرالناس أحيانا من صحبتنا، فمازحوننا بلقب الليل والنهار، فعزيز أسمر البشرة وملامحه كبيرة بينما ملت أنا إلى البياض وعيوني كانت خضراء مائلة إلى الاصفرار، ولم ألحظ يوما ان عزيزا تضايق من ذاك المزاح، أو حمل في سريرته حقدا من ذلك، أو هذا ما ظننته.

كنت أقدر ظروفه الصعبة، فغالبا ما كان محطما، ليس فقط من حيث الظروف المادية، وإنما من سوء معاملة أبيه له فهو الاكبر من حيث الذكور بين ثمانية أخوة، وأبوه قليل الهمة والرزق، وهذا فرض عليه مسؤوليات كثيرة وغضبا بالغا وانزعاجا دائما من المشاكل المتواترة في المنزل، واتهامه دائما بالإهمال والتقصير.

شابهني في ملامحي ابن عمتي رامز، إلا أن رامزا كان بشعر بني داكن وعيون عسلية فاتحة وبشرة حنطية، كان أكثرنا طولا وأكثرنا ثراء وأناقة وترتيبا، وكثيرا ما غبطنا حضوره إلى المدرسة راكبا مركبة أبيه الخاصة، وهو طالب الثانوية العامة وكنا ننظر إليه بفخر كوننا نعرفه، ونحن في المرحلة الثامنة من دراستنا.

فتحي تمتع أيضا بملامح جميلة وبشرة حنطية مائلة للحمرة وأهل ذوي مستوى مادي جيد، واهتمام به لإكمال تعليمه، اذ كثيرا ما أبدى انزعاجه وقلقه من درجاته العلمية ومن عتاب وتقريع أبيه له عند كل درجة منخفضة، لذلك كان يتوجه لي لشرح المواد المستعصية عليه، وبينما كنت أمضي وقتي في تفسير الدروس له، كان يقضي عزيز وقته يمسك بكرة صغيرة في يديه يرفعها إلى الهواء ويلتقطها وهو مستلقٍ على سريري في بيتي، وما أن أنهي الدرس حتى يثب واقفا ويقول «هيا بنا للعب الكرة»، فنخرج جريا إلى ملعب موجود على أطراف البلدة وقريب من بيتنا فنلعب حتى المساء، وأحيانا كان عزيز يعود معي إلى بيتي فيتناول العشاء ويسهر معنا على التلفاز حتى الساعة العاشرة،

ومن ثم يعود إلى منزله، ليخبرني في اليوم التالي أن والده ضربه لتأخره لدينا، والقى على مسامعه موشحا كاملا عن إنعدام المسؤولية لديه وأنه بدلا من تضييع وقته معي كان لأبد أن يبحث عن عمل ما؛ ليساعده في مصروف البيت.

مضت بنا السنون ونحن في وفاق، ولم يعكر صفو صداقتنا شيء، وها هي السنة الدراسية الفاصلة في حياتنا ومن هنا يبدأ بحثنا عن المستقبل، كان أمامي هدفٌ وضعته نصب عينيي، أن أكون لأبي وأمي كما أرادا لي أن أكون «مهندسا»، ولم أكن بأي حال من الاحوال لأدمر أملهما في نجاحي، فأنا ابنهما الوحيد، اتجهت أنا ومرعي إلى الدراسة المكثفة وأمضينا أوقاتا طويلة في مراجعة الدروس أكثر من مرافقة أصدقائنا، بينما لم يكن هذا حال عزيز وفتحي اللذين استمرا في تمضية وقتهما لعبا وكلاما وأحيانا عملا بالنسبة لعزيز.

يزورني عزيز فيجدني مشغولا في الدراسة، يجلس بجانبي ويبدأ بقذف والتقاط الكرة الصغيرة التي بحوزته على الدوام، تحضر أمي الشاي فيندفع إلى أخذ «الصينية» فيشرب كوبه ويملأه مرة أخرى، بينما يكاد كوبي يبرد ولا أمد يدي إليه، فينهض ويفارقني ويقول لي:

– أه، اشعرتني بالضجر، ماذا سوف تستفيد من كل هذه الدراسة، هل يستطيع والدك أن يدخلك الجامعة ويهتم بأمورك المادية؟ فمصاريف الجامعة كثيرة كما يقولون.

– ولذلك أدرس، فربما أحصل على منحة دراسية.

– حسنا، بالتوفيق، إلى اللقاء.

وعندما لا ألتفت إليه او أشعر بمغادرته، كان يعود ويطرق الباب ومن ثم يقول:

– قلت إلى اللقاء.

– نعم، حسنا إلى اللقاء، في أمان الله.

– أنت حتى لا تهتم، أدرس، بالنجاح.

يغلق الباب وراءه للمرة الثانية ومن ثم يعاود فتحه ويمط نصف جسمه إلى داخل الغرفة ويقول:

– سمير، أحضرت لك علبة عصير إن أعرت الموضوع انتباها، فها هي على السرير.

– حسنا، شكرا لك.

ألتفت لأجد أنها علبة عصير المانجا، فضحكت وقلت له:

– أنت، تعرف أني لا أحب عصير المانجا، فلماذا أحضرتها؟.

– حسنا، أبقيها لي للزيارة القادمة فأنت تعرف أني أفضل عصير المانجا عن باقي العصائر.

إنها ليست المرة الأولى الذي يحضر لي شيئا على أساس أنه هدية وهو يعي عدم حبي له، لا أدري أحيانا كيف يفكر؟.

بدأت بعدها تخف زيارات عزيز إلى منزلي حتى بدأت أيام الامتحانات، لقد كانت أيام عصيبة، كنت أدرس ولا أنام إلا قليلا، في تلك الليالي التي سهرتها أدرس، تناهى إلى مسمعي صوت أمي وهي تتوضأ وتصلي وتدعو الله أن أنجح، وحرصت أمي صباح كل يوم إختبار على إعداد إفطار شهي لي، وعلى توديعي عند مغادرتي، والدعاء لي بالتوفيق حتى أبتعد، وعندما كنت أعود إلى المنزل، كانت تسألني عن سير الاختبار والاسئلة، وطبعا إذا ما قلت لها أنها صعبة تبدأ بلطم خدها، ومن ثم تدعو على واضعي الاسئلة.

في أخر يوم من الامتحانات، عدت إلى البيت سعيدا وقبلت رأس أمي وقلت لها:

– يمكنني الآن أن أنام يومين كاملين.

ثم دخلت إلى غرفتي وغططت في نوم عميق، نمت لمدة ساعتين واستيقظت على يد تهزني، فتحت جفوني بصعوبة لأجد عزيزا يقف فوق رأسي ويقول لي:

– هيا قم، سنخرج في نزهة.

اجتمعت إلى أصدقائي وذهبنا في نزهة جميلة عبر الجبال القريبة، سرنا مسافة لا بأس بها، وضحكنا وتراكضنا من جانب إلى أخر، وحاول عزيز ملاحقة أرنب بري لاصطياده بمقلاع، لم يوفق في ذلك، لكنه وفق في صنع إبريق من الشاي على النار، كان لذيذا إلى درجة أني اختطفت الإبريق لشربه وحدي فلحق بي عزيز وأمسك به وسكبه على الأرض حالفا إني لن أشرب ذلك، لأتعلم عدم الآنانية والاستحواذ على أشياء الاخرين.

عدنا عند المغيب متعبين وفرحين في ذات الوقت لقد انزاح عن كاهلنا هم كبير «الثانوية العامة» وها هي الحياة تفتح أذرعها لاستقبالنا، ولم يبق من الالم سوى ألم إنتظار النتائج.

إنه اليوم المشهود «يوم النتائج» ، أمي وأبي قلقان كأنهما هما من مصيرهما معلق بالنجاح والفشل، ألتقيت بعزيز أثناء خروجي من منزلي، كان هو الاخر في طريقه لأخذ نتيجته من المدرسة، قال لي:

لا أعلم لماذا علي الذهاب، فأنا متأكد من عدم نجاحي.

وفعلا كان كما ظن، لم ينجح في الامتحانات بينما حصلت أنا على معدل مرتفع يؤهلني لدخول كلية الهندسة لكن لا يعطيني منحة، فتحي ينجح بأعجوبة، ومرعي يحقق معدلا مرتفعا، فرح والدي كثيرا، وطبعا اخترت كلية الهندسة لكن القسط الأول من رسوم الدراسة مبلغ ليس بالهين، استطعنا تدبيره من مبلغ كنت أدخره من مصروفي الخاص، كنت أدرك أن سنوات الدراسة طويلة والمصاريف متتابعة، فقررت أن أعمل، وكنت قد اتفقت مع مقاول من بلدتنا

أن يسمح لي بالعمل الايام أو الساعات التي أكون فيها متفرغا، لكن أمي اعترضت، دلفت إلى غرفتها ثم عادت وهي تحمل مصاغها وقالت لي:

– أريدك أن تتفوق، لن أسمح لك بأقل من ذلك، كل مصاغي تحت أمرك، عندما تحتاج الى قسط أو كتب.

نظرت إلى أمي وطافت في عيني دمعة، مر في ذهني بساطتها وحنانها فهي تعتقد ان ذلك المصاغ الذي تمتلكه سيكون كافيا لتكاليف دراستي الجامعية، اقتربت منها وقبلت يديها ثم قلت لها: حسنا، سأفعل.

في اليوم الأول لي في الجامعة، دعوت أصدقائي وجلسنا في ربوعها، وأمضينا وقتا جميلا، الآن ابتدأت حياة مختلفة وجديدة، اعتقدت الآن أني أملك قراري وأن لي الحرية أن أقول ما أريد، رغم تحذيرات أبي وأمي من عدم الخوض في الأحاديث السياسية والحذر من رفاق السوء فالجامعة مجتمع مختلف وكبير.

في السنة الثانية من الجامعة، انضممت إلى مجلس الطلبة عندما فازت الكتلة التي مثلتها بإنتخابات الجامعة، كانت لدي الكثير من النشاطات المتركزة على حقوق الطلبة، ومساعدة الطلبة المتفوقين، وذوي الدخل المحدود وأيضا محور حياتنا «القضية الفلسطينية»، فنظمنا نشاطات خطابية وحفلات لأغانٍ وطنية، ومعارض للقرى المدمرة ومعارض أخرى للتراث الفلسطيني.

في إحدى الحفلات خطبت خطابا عن حق العودة إلى فلسطين واصطف الكثير من طلبة الجامعة يستمعون إلى خطابي وإلى عزف فرقة موسيقية طلابية لأغانٍ وطنية شاركتني الاحتفال، عندما عدت إلى منزلي، واسترحت قليلا، حضرت الجيبات العسكرية لقوات الاحتلال وحاصرت المنزل واعتقلتني.

لم يكن هناك محاكمة أو لائحة إتهام بل كان اعتقالا إداريا، مكثت في السجن شهرين، هناك تعرفت على «ماهر» الذي حذرني من ما يسمى بالعصافير وهم المتعاونون مع الاحتلال والذين ينتشرون بين المعتقلين، في البداية أخذت حذري

منه هو شخصيا، لكن مع الوقت إرتحت إليه، كان لديه فكر طابق فكري وأراء التحمت مع أرائي.

كان ماهر يقضي في السجن فترة لا تقل عن ست سنوات، وقد أمضى منها أربعة حين دخولي السجن، أشعرني ماهر أني بمنزلة ابن له، وروى لي الكثير من قصص النضال والتحليلات السياسية وآفاق المستقبل.

عندما خرجت من السجن لم يكن هناك شاغل لأبي سوى سؤالي كل يوم عن «ماذا فعلت اليوم؟»، أمسك بيدي وحذرني من الدخول في نشاطات متعلقة بالنضال مهما كان صغيرا، ووعدته أن أتوقف عن تنظيم نشاطات جامعية.

في السنة الرابعة من الجامعة و بعد سنتين من خروجي من السجن، كانت نشاطاتي تؤول إلى الصفر كما وعدت أبي، خرجت من محاضرة في الفصل الصيفي واتجهت إلى مكاتب ادارة الجامعة للحصول على قرض طلابي ميسر، هناك ألتقيت به صدفة في إحدى أروقة الجامعة فقد حضر لتسجيل ابنته فيها، لفترة غير بعيدة، اعتقدت أن مروره في حياتي كان مؤقتا وأن إحتمالية ان ألتقي به مرة أخرى ضعيفة، ولكن القدر كان يرسم لي طريقا أخر، لقد أراد لي أن ألتقي بماهر مرة أخرى، سلَم عليَ بحرارة، ورافقته في زيارة تعريفية للجامعة وأصررت على تقديم وجبة غذاء له، وبعدها تكرر لقائي به حتى أصبحت عضوا في الفصيل الذي ينتمي إليه، وكيف يمكن أن أكون عضوا في فصيل سياسي ولا أبث ذلك الخبر إلى عزيز، لذلك جذبته ليكون معي، حقا لم نعد نلتقي كما السابق، فهو يعمل داخل الخط الأخضر، لكن لا يعني ذلك أنه لم يعد يشاركني أسراري، أخفيت عن أبي وأمي خبر إنضمامنا للفصيل، لم أشأ لهما أن يقلقا أو بالأحرى خشيت أن يعارضا ذلك، فأقع في حيرة الاختيار ما بين الفصيل وبين رغبتهما، لكن عزيزا أخبر أبي بذلك.

ثار أبي عندما علم بالخبر، ولكنه لم يفاتحني بالموضوع ولم يتحدث معي حول

ما اعتمل في داخله، أذكر عندما استيقظت صباحا ذات يوم وكان يجلس على أريكته المفضلة، ناداني وقال لي:

– أريد أن أتحدث معك في موضوع، اجلس ولا داعي للذهاب للجامعة اليوم.

امتقع لوني خاصة أن لهجة صوته كانت جادة وحازمة، وقد شرد ذهني إلى كونه سيفاتحني بأمر انضمامي للفصيل، إلا أن الموضوع كان أبعد من ذلك، لقد أبدى بشده رغبته في أن أتخذ زوجة.

لقد أصر أبي على تزويجي، دفعه إلى ذلك خوفه ورغبته في أن أكون عائلة وأن يرى أحفاده، عادة قوات الاحتلال تركز بصورة أقل على الشباب المتزوجين، وأيضا أمي لم تكن تطيق صبرا لذلك، وكم تحدثت إليهم عن الاعباء المادية، لكن أمي كانت تلوذ بالآنزواء في غرفتها وتبكي وتقول بحرقة:

– أريد ان أرى أبناءك قبل أن أموت.

رضخت للأمر ووافقت، ومن ثم اقترحت علي أمي اسم «سلمى»، أخبرتني أنها أخت صديقي «مرعي»، وهي جميلة ومن عائلة محترمة، ويبدو يا سلمى أن الأذن تعشق قبل العين أحيانا.

مضى على خطبتي لسلمى سنتان و تخرجت من الجامعة ولم أستطع الحصول على وظيفة مباشرة، لقد اقترح عليَ ماهر العمل في أكثر من وظيفة بمساعدة من الفصيل ولكني لم أقبل ذلك، كنت أريد أن أخوض تنافسا حقيقيا للحصول على ما أستحق ولا أسمح لأحد أن يتهمني باستغلال اسم الفصيل لمصالحي الخاصة، لكن اكتشفت أن كثيرا من الوظائف التي قدمت إليها في مؤسسات وشركات ومصانع وكنت الأجدر على استلامها قد ذهبت لشخص من معارف مديريها.

هذا الفراغ وقلة العمل دفعاني أكثر للمشاركة في الأعمال التنظيمية، لأجد نفسي

مطاردا من قبل قوات الاحتلال، التي جاءت أكثر من مرة لتبحث عني، وانا أنتقل من مكان إلى أخر دون استقرار.

أكثر ما كان يؤلمني هو والداي المحتاجان إلي وسلمى، لذلك استطعت بطريقة ما أن أرسل إليها رسالة كتبت فيها

«سلمى، لا يمكنني أن أعرف ماذا سيكون عليه مستقبلي، ولا أعلم متى سينتهي حصاري وترحالي ولا أعلم ما هو مصيري، هل هو السجن أم الموت، أنا في حيرة بمن أثق وبمن لا أثق، وأنت أجمل وأرق من أن تعيشي حياة لا أمل فيها ولا استقرار، أعتقد أنه ليس بمقدوري إتمام هذا الزواج، لذلك لا تنتظريني، أعتبر منذ اللحظة أنه لم يعد يربطني بك شيء، وأود منك أن تعيشي حياة هانئة ملؤها الاستقرار والود والاحترام».

الفصل الثالث

وقفت مندهشا في كهف يبعد أميالا عن بيتي، لم أستطع أن أصدق أن عزيزا هو من وشى بي، ولم يتحمل عقلي وقلبي فكرة أن يكون صديق العمر ورفيق الطفولة منافقا وخائنا، لقد رفضنا الظلم سويا! ما الذي تغير؟ هل كنت مخدوعا إلى هذه الدرجة؟ هل كان يجب علي أن أحارب عدوا، أم التفت إلى صديق غادر، كان يجب أن أفهم الكثير من الإشارات والمواقف، التي ظهرت منك وأشعرتني أننا لسنا على قلب رجل واحد، ليس فقط منذ بدأنا نسلك طرق مختلفة، وليس فقط عندما أضحيت تعمل، وأنا غرقت في الدراسة، بل كان هناك عشرات اللحظات التي كان يجب فيها أن أتوقف وأن أتأمل، أتذكرعندما دخلنا منزل سيدة عجوز على مشارف البلدة، وكانت جنود الاحتلال تلاحقنا، كنت متوترا ونظرت إلى الباب مرات ومرات وكأنك تستعجل قدوم أحدهم

وسمعتك تتمتم رجاءك، أن يكون أبو فهمي معهم، ولم أفهم ماذا تقصد؟ومن هو أبو فهمي؟، لكن ثقتي العظيمة بك كانت أكبر من أن أسال، ثم جاءت السيدة العجوز وأخبرتني أنني يجب أن أغادر المنزل حالا، فالجنود قادمون، وأن صديقي ألا وهو أنت قد سبقتني وغادرت أثناء نومي لعدة دقائق.

لقد كنت أنت صديقي القريب، أذكر أول يوم لي في المدرسة حيث وقفت على باب الغرفة الصفية وبجواري والدي الرجل العجوز وقد لبس عباءة هرئة وحنى ظهره إلى الامام قليلا وظهرت حول عينيه آثار التجاعيد وأعلن الشيب عليه حربا فبدأ يتسلل إلى أطراف شعره رويداً رويدا، كنت قد تأخرت عن بداية المدرسة اسبوعا، لم أكن بداية أود الذهاب إلى المدرسة ومفارقة والدي وصديقي عزيز، إلا إني استفقدتك، فلم تعد تلعب بالجوار، وكلما سألت عنك أخبرني والداي أنك ذهبت إلى المدرسة، فعدلت عن بكائي ورفضي المتواصل لها، وأخبرت أبي أني أريد الذهاب إليها.

وقفت على باب الغرفة الصفية أبحث عنك وجال نظري في جميع أنحائها، حتى رأيتك تجلس في أخر صف منها، نظرا إلى طولك فابتسمت لك ابتسامة خفيفة كأني وجدت ضالتي لكنك أنت، بقيت ملامحك كما هي ولم تبتسم لي.

توسل والدي المعلم أن يجلسني بجوارك، كنت أشعر بالأمان بجوارك، لماذا يا عزيز؟ لماذا خنت ولماذا ضعفت ولماذا بعت وطنك ودينك، مقابل ماذا؟ حفنة من مال أم لحظات من سلام زائف هل اعتقدت انك معهم ستكون في أمان منهم، وأنهم سيحموك، فمن يحميك من نفسك ومن ضميرك من؟ ومن ينجيك من الموت.

هل كان ذنبي أن لي قلبا رفض الظلم والعذاب والضعف والذل، قل لي، ماذا كان ذنبي؟

أتذكر؟، أول مرة أدركنا فيها كلمة الاحتلال وعرفنا معنى الظلم، أتذكر؟ حين عودتنا من المدرسة وكنا ما زلنا في الصف الأول ورأينا الاحتلال؟، أتذكر كيف رأيناهم وهم يعتقلون جارنا محمودا؟، ذلك الفتى الذي شاكسنا كثيرا وأضحكنا كثيرا، أتذكر كيف قيدوا يديه وأعصبوا عينيه؟ ما زال صراخ والدته وهي تحاول منعهم من أخذه واعتقاله لا يفارق مخيلتي، لم نفهم وقتها لماذا اعتقلوه؟ ولماذا أخذوه؟فقد كان لطيفا وودودا وحافظا للقرآن، كم مرة سمعناه وهو يتلو القرآن وطربنا لصوته.

ألم نهرب وقتها والخوف يعترينا؟، وجلسنا على تلة قريبة، لقد سمعت دقات قلبك وقتها من الخوف والغضب وتعهدنا أن ننتقم وأن نمسك أقرب حجر ونضربهم به إن جاءوا الينا.

الآن يا عزيز لم تعد أنت ذلك الطفل الخائف، ولم تعد ذلك الطفل الذي سيواجه، الآن أنت من تدلهم على مكاني.

لقد أحضروك معهم ليجعلوني أراك، وأدرك خيانتك، ليكون طعم الهزيمة في نفسي أقسى، ولأيقن أني عشت مخدوعا في أقرب الناس إلي.

لكن موقفي لم يكن أسوأ منك، فنظرة الخزي والعار التي اعتلت وجهك كشفت لي كل بؤس العالم واحتقاره.

وأنا سأختار طريقي أيضا، وسأختار حياة أفضل، ولن أعيش طويلا لأتعذب بمرارة الخيانة والنفاق وضياع الصداقة، فبصقت في وجه عدوي ورفعت رجلي في وجهه وانتشلت سلاحي في يدي وصوبته نحوه وكنت أعلم أن هناك عشرات الرصاصات ستخترق جسدي.

****

الفصل الرابع

جلست في غرفتي مستندا إلى مكتب صغير أنظر إلى الباب وأطرق المكتب دقات منتظمة بقلم لتشكل لحنا وايقاعا ثم سمعت جلبة وتوقفت واذ بالباب يفتح ويدخل عزيز فسألته بسرعة:

– هل اعتقلوه؟

طأطأ عزيز برأسه ثم سحب أقرب كرسي وجلس عليه وأجاب:

– لقد قتلوه يا فتحي، حاول المقاومة فقتلوه!

– هل استرحت الآن، أهذه الدرجة كرهته؟

– هل ستفتح لي موالا جديدا؟ أحتاج إلى المال ماذا كنت تتوقع مني أن أفعل؟

أن أخفي هذا الصيد الثمين ولماذا؟هل كان سيحرر البلاد؟هل كان سيقدم أو يؤخر؟لا، ذلك غير ممكن بل مستحيل، ماذا يفعل رجل أمام جيوش من الاعداء والعملاء، أم أتركه لك، لو لم أفعل أنا ذلك لفعلت أنت.

- هذا غير صحيح، ما كنت لأشي بسمير أبدا.

- كاذب، بل كنت تتوق للانتقام منه وهذه الرغبة ليست وليدة اليوم بل يدفعك إلى ذلك عدة أسباب بعضها جديدة وبعدها قديمة، أتوقع أن كرهك له بدأ عندما أبلغ المعلم عنك في الصف الثالث أنك أنت من تؤذي «رعد» الطالب المقعد وتتعمد ايذاءه كل مرة تراه فيها والثانية ... سكت قليلا ثم أردف:

- سلمى.

- هل من الممكن أن لا نخوض في ذاك الموضوع؟، ها هي الآن أصبحت أرملة حتى قبل أن تتزوج.

- فتحي، يجب أن تعرف أن المشاعر ليست في يد الانسان يتحكم بها كيفما يشاء، أنت مستقر وهو مطارد وتملك بيتا وسيارة ومع ذلك أحبته هو فلماذا بقيت حاقدا عليه.

- لولا وجوده لأحبتني أنا، لكن هو كان في المنتصف، خلوق ووطني وأكثر وسامة مني ومع ذلك لم أشأ يوما أن أغدر به ولن أفعلها وأنت تعلم ذلك.

- الآن ذهب، أصبحت وحيدا في الساحة، يمكنك أن تشكرني على ذلك، برأيي، يجب أن تستغل الفرصة، تبدي اهتماما وتقف بجانبهم فأنت ابن خالتها وهذا طبيعي، ثم لن أعلمك ماذا تفعل؟ فأنت من الخبث بحيث لا تحتاج إلى تعليم.

غرق عزيز في ضحك متواصل وهستيري، فنظرت إليه باشمئزاز ثم قلت:

- وأنت أكثر مني، أنت وعاء يفيض كرها وحقدا، حسنا أنا لي أسبابي لكره سمير وأنت لماذا كرهته؟، لقد كان صديقك، بل صديق العمر ورفيق الطفولة.

توقف عن الضحك ونظر لي نظرة قاتمة كادت تخترقني، كانت عيونه الصغيرة حادة وتخفي وراءها الكثير من الحقد والغضب ثم قال بصوت ضعيف أشبه بالهمس:

- يشعرني بالقرف من نفسي، حسدته على أبسط الأشياء نعم حسدته على أمه وأبيه على اهتمامهما به بينما كنت أنا وحيدا في عائلة كبيرة، أب قاس لا يعرف سوى الضرب وأم بلهاء لا تجيد سوى اللعنات، كم مرة دفعاني إلى التسول لأحضر لهما المال؟كم مرة كان لدي حذاء وكان يجب أن لا ألبسه حتى أثير شفقة الناس لأحظى بقرش أو قرشين؟

قال ذلك وعلت نبرة صوته حتى قاربت الصراخ ثم نظر إلي وقال:

- نعم حسدته لأنه كان نظيفا ومرتبا كنت أشعر بالطمأنينة والراحة في بيته كان هو محور حياة والديه، أمه التي تشبه النسمة، أبوه الذي لا يكاد يجعله يلمس الأرض، كم تمنيت لو أن جميع أخوتي يموتون لأبقى أنا الأبن الوحيد، لكن أتعتقد أن ذلك كان سيحدث فرقا؟هل كان أبي وأمي سيهتمون؟.

مرت لحظات صمت مطبق ثم أردف:

- ثم أنه كان يستفزني، يعيش في عالم خيالي من المثاليات والقيم والتضحيات والثقة العمياء بالناس، أين كان يعيش؟ أشبهه بالحصان «بوكسر» في تلك القصة «مزرعة الحيوانات»، أتذكرها؟ ذلك الحصان الذي بقي مؤمنا بالثورة وبالعمل لصالح المزرعة، مع أن كل الخنازير تحولت إلى بشر، أتذكرها تلك القصة يا فتحي؟

- نعم أذكرها، كانت باللغة الانجليزية، وفسرها لنا سمير حيث لم نتقن أنا وأنت اللغة الأنجليزية لنفهم مجريات القصة.

- اه..، نعم، لقد شرحها لنا، لقد أثَرت فيَ هذه القصة، أتعرف يا فتحي؟ كلما

توغلت في الخطأ وغرقت أكثر في الظلام، أشعر أني أقترب من النار وأن الله يكرهني وأنا أكره نفسي، بينما يعيش هو في الملائكية والنور أغرق أنا في الظلام، أنا الشيطان وهو الملاك، فهل كان من الممكن أن نستمر، إنهما طريقان مختلفان وعالمان على طرفي نقيض.

- هل علمت أمه بالخبر؟

- بالتأكيد، ليست هي فقط، فالعالم سيعرف من الصحف ومن الاعلام حتى في موته، يبدو بطلا وشهيدا، وأنا أبقى نكرة أو وصمة عار في تاريخ وذاكرة الناس هذا إذا ما تذكرني أحد، لكن عندما تسقط في المستنقع لن تستطيع الخروج منه، لقد غرقت ولا أجد طوق نجاة.

- وأغرقتني معك.

- المهم كف عن هذا الهراء، يجب أن نرفع النعش غدا ونكون أول من يهتف بالدم بالروح نفديك يا شهيد فنحن أصدقاؤه وأحباؤه، وقد حضرت كلمة لأقولها بهذه المناسبة أمام جموع المشيعين بما أني على حد قولك رفيق العمر، أريدك أن تساندني، كلما قلت كلاما حماسيا تهتف لي ليعيد الناس من ورائك، مثل «أنت لها»، أو غير ذلك من الجمل الهتافية،، قل ما تراه مناسبا، ثم أريدك أن تظهر الحسرة على شبابه وما الذي جناه وماذا غيَر أو بدل سوى أنه أضاع حياته.

- هل هذه أوامرك أم أوامر عليا؟

نظر الي بحقد بالغ، وكأنه يقول لي أنا خادم مطيع وأجيد أساليب خداع الناس، ولا أحتاج إلى أوامر عليا في هذا الشأن، ثم قال بنبرة صوت عالية:

- فتحي أنت تكثر الكلام سأذهب وداعا.

إنها الساعة السادسة صباحا، الجميع في القرية يتحضر لجنازة سمير، و أنا وعزيز وأبيه وجمع من الرجال بينهم المتحدث الرسمي باسم الفصيل «ماهر»

سوف نذهب لتسلم الجثمان المحجوز منذ يومين في ثلاجة الموتى لدى جيش الاحتلال وسيتم الإفراج عنه خلال هذا اليوم الثلاثاء الموافق الثاني عشر من شهر حزيران عام 2002، لا نعلم أي ساعة سيتم التسليم، لكننا سنغادر في ساعة مبكرة فالطريق طويلة ولا نعلم المعيقات التي ستواجهنا.

والدته تكاد تفقد الوعي، فهي ما بين استفاقة وإغماءة، وسلمى دموعها كنهر كما قالت لي أمي، أبو سمير يبدو رابط الجأش ولا يقول سوى «إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع ولكن لا نقول إلا لا إله ألا الله» لكنه يتمزق من الحزن وإن حاول إخفاء ذلك، النساء تجمعن في بيت أبي سمير والرجال في بيت أبو عزيز جارهم، والجميع يكاد يبكي بعضهم يبكي لأنه عرف سمير شخصيا، وبعضهم يبكي لأن أبا سمير فقد ابنه الوحيد وبعضهم يبكي لأنه يخاف أن مصير أبنائه قد يكون يوما ما مثل مصير سمير.

عزيز يمسك بورقة بين يديه، وأراه أحيانا منذ ساعات الفجر الأولى يذرع الغرفة ذهابا وايابا، يفتح الورقة وينظر اليها قليلا ومن ثم يعيدها إلى جيبه، ويتمتم بالكلمات كمن لديه اختبار في المحفوظات، انه يتدرب على خطبته فمصيره على المحك ومستقبله السياسي قد يبدأ من هنا، لقد حظي بالفرصة ليخطب في جموع المعزين وقد يصبح شيئا مهما في الفصيل، لقد بلغ إلى مسمعنا أن «كاميرات» التلفاز ستتواجد وتنقل الحدث ورغم أنه سيكون تقريرا عاديا عن شهيد أخر يسقط في فلسطين سيعرض مرة واحدة ثم يختفي في أرشيفيات القنوات، لكن هذا الأمر قد يعني الكثير لشخص باحث عن مكسب سياسي مثل عزيز.

وصلنا بعد ساعة من السفر إلى المكان المحدد لتسلم الجثمان، انتظرنا قليلا ولا نعلم إلى متى سيطول انتظارنا، لكن نرجو أن يكون قريبا، حتى نستطيع أن نصلي عليه قبل الظهر وندفنه في مقبرة القرية.

عندما وصلت الجيبات العسكرية وسيارة الاسعاف التي حملت الجثمان، شعر

قلبي بانقباض شديد، ووجدت صعوبة في التنفس حتى كدت أن اختنق، بينما وقف عزيز ثابتا وقد استطاع افتعال بعض الدموع التي وصلت إلى عينيه ولكنها لم تخرج، يا ليت لي القدرة على إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء، ما كنت لأفعل ذلك، ما كنت لأسمح لعزيز أن يفعل ما فعل.

استلمنا الجثمان قبل الساعة الثانية عشر من ظهر ذلك اليوم، وقفلنا راجعين مسرعين بقدر ما استطعنا، وصلنا إلى المسجد مع آذان الظهر.

بعد الصلاة على الشهيد خرجنا إلى الشارع وحملنا النعش وتجمع الكثير من الشباب حولنا، بعضهم جاء من قرى ومدن مجاورة، سرنا في الجنازة وهتفنا طوال الطريق «بالروح بالدم نفديك يا شهيد» حتى وصلنا إلى المقبرة، بعد دفن سمير كان هناك ما يشبه المهرجان توجهنا إلى مكان مفتوح حيث نصبت منصة أمام الحشود التي تجمعت حولها.

تحدث بداية ماهر المتحدث الرسمي بإسم الفصيل والرجل الستيني هو من أولئك الذين كانوا في صلب الفصيل منذ نشأته، أنصت الناس إلى خطابه وسجلت كاميرات التلفاز كلماته ثم كان دور عزيز، ارتجف عزيز حين أُعلن عن اسمه وقدمه ماهر كأخ وصديق لسمير، نظر إليَ من بعيد - وقد كنت أقف قبالته من الجهة المغايرة للمنصة -كأنما يستجدي دعما أو عطفا ثم صعد إلى المنصة، بدا عليه الأرتباك قبل أن يتكلم فهو غير معتاد على هذا الحشد وهذا الاهتمام فهو لم يكن ذا شأن في يوم من الأيام، بدأ خطابه بالصلاة والسلام على رسول الله، ابتسمت ابتسامة فاترة وحركت رأسي يمنة ويسرة، أعدت تركيز نظري على محياه، ولاحظت أنه استعاد الثقة وبدا أقدر على الحديث فقال:

- «اخوتي، جماهيرنا الكبيرة، جميع الحاضرين، إلى متى سنبقى تحت نير هذا الاحتلال؟ ينالون منا ولا نحرك ساكنا، يقتلون أبناءنا واحباءنا وأصدقاءنا ويفجعون قلوبنا على فراقهم.

هل كان سمير وحيدا؟، وهل يعتقد العدو أنه بقتله تكون قد انتهت القضية وقد مات الشرفاء ومات الأمل، إننا باقون هنا إلى الأبد، باقون حتى النهاية ولن يكون سمير وحيدا، كلنا سنقف وسنواجه هذا العدو حتى الرحيل، حتى أخر نفس فينا».

قطع الحاضرون كلام عزيز خاصة مع ارتفاع لهجة صوته في الجملة الأخيرة وهتفوا «بالروح بالدم نفديك يا شهيد»، شعر عزيز بالسعادة، لقد اختفت من وجهه ملامح الحزن المفتعل وبدت ملامح الفخر والاعجاب بالنفس، أعترف أنا شخصيا أن كلامه لامس شغاف قلبي، لقد أخذتني الحماسة أيضا كما باقي الشباب.

صمت الجميع من جديد وأستأنف عزيز كلمته:

«أيها الشهيد الحاضر فينا المكفن بدمك الطاهر، فلسطين سكنت قلبك منذ نعومة أظفارك، وأنا أعرفك أكثر من غيري، وعندما أقول يا أخوتي منذ نعومة اظفاره، فأنا لا أبالغ، لقد كبر سمير، وفلسطين لا تغادر خياله، لقد أحبها كما لم يحبها أحد مثله، لذلك كانت كل شيء بالنسبة إليه، هي فلسطين وحدها التي كانت الفرح والحزن والألم والسعادة، هي فلسطين وحدها التي حلم بها سمير وتمناها مستقلة وحرة وسعيدة، هي فلسطين وحدها التي كانت أغلى من دمه، وأغلى من دمع أمه على ابنها الوحيد، وها هو يذهب وتبقى فلسطين وسيموت المئات منا وستبقى فلسطين، ويوما ما يا صديقي العزيز سنلتقي في الجنة، كما وعد الله الشهداء وسننظر إلى الأرض ونرى فلسطين شامخة، وسأذكرك وأقول لك، أرأيت، صدق الله وعده حين قال «وكان حقا علينا نصر المؤمنين» .

ضج المشاركون في الجنازة عند سماعهم خطاب عزيز وزاد حماسهم عند سماعهم جملته الأخيرة والتي ضربت على وتر الايمان، لقد بدى خطابه حماسيا ووطنيا، حتى أنا كدت أن أصدق حديثه، يا إلهي! كم أنت منافق ومرائي يا عزيز، لقد نزل عن المنصة كأنما يرقص، استقبله ماهر وأحاط ذراعيه حوله وربت على ظهره، اقتربت منه وقلت له:

- كان خطابا ممتازا، أحسنت.

ابتسم وبانت أسنانه وقال:

- نعم، أعرف ذلك، هذا أقل ما يمكن عمله لصديقنا سمير.

- لكن، هناك مشكلة سمعت بعض حراس القيادات يتحدثون عنها.

ارتجف عزيز وقال:

- ماذا، ماذا هناك؟ ما المشكلة؟.

- لقد غفلت عن الترحيب بالقيادات الحاضرة، كان يجب أن ترحب بعضهم باسمه والاخر بمركزه.

- يا إلهي، فاتني ذلك، ما العمل الآن؟.

- لا تفعل شيئا، لكن أحببت تنبيهك للمرات القادمة، فيبدو أنك ستتحدث كثيرا فيما بعد.

- أرجو ذلك.

- نعم، لقد أبدى الجميع إعجابهم بخطابك، لقد بدوت بطلا أيضا، ورغم قصر كلمتك إلا أنها مؤثرة.

مع نهاية هذا اليوم مكثنا ثلاثة أيام في بيت أبي سمير، لم يرغب أبو سمير في فتح بيت للعزاء، فلا عزاء للشهداء، لكن عزيزا قال لي:

- يجب أن لا نجعل أبا سمير يشعر بالوحدة وأنه فقد ابنه الوحيد.

رددت عليه باستغراب:

- أنا لا أفهمك

- كيف ذلك؟

– هل تعني ما تقول؟ أم أنك تستهين بمشاعر الأباء المفجوعين.

– هل في كلامي ما يشير إلى ذلك؟

– لا أعلم.

نظر بعدها إلي وقال:

– لماذا عليك أن تحلل الأمور أكثر مما ينبغي.

– لأنني أعرف حقيقتك.

اقترب مني وصوب نظره إلي ثم قال:

– إذن، حاول أن تنسى تلك الحقيقة.

****

الفصل الخامس

أعلم يا سمير أنك لن تسامحني، ولن تتقبل أعذاري فأنت لا تفهم، لا يمكنك أن تفهم طوال الوقت تحدثت أمامي مئات المرات، أنه لا عذر للخيانة ولا تحت أي ظرف يجب أن يبيع الإنسان وطنه ودينه؟

ولكن عن أي وطن تتحدث عن ذلك الوطن الذي نبذنا، نبذك أنت لفقرك ونبذني لاجل سمعة أبي، ما ذنبي إذا كان أبي شخصا قاسيا وعدائيا وسارقا؟ لقد كانت الظروف أقوى من إرادتي ورغباتي وأحلامي كانت أكبر من أمضيها في أحلام الانتصار الواهم على العدو الذي يفوقنا قوة وعدة. بينما أنت كنت تمتلك ثقة وعزيمة كبيرة، الثقة أن الأمور ستتغير وأن أحلام التحرير ستصبح واقعا يوما ما، ثقتك أعمتك عن رؤية ما يدور حولك، أتعتقد أن تلك النظرة التي اخترقتني والتي حملت الدهشة والمفاجأة وخيبة الأمل قد أثرت فيَ؟ لا، لم تؤثر فيَ قيد أنملة، مات ضميري منذ زمن.

نعم، أعترف مات ضميري، مات على دفعات أمام كل موقف رأيت فيه الحق يموت وينتصر الباطل، منذ أن اضطررت إلى كسر كرامتي عشرات المرات، أمام أبي حين كان يضربني دون سبب واضح وأمام معلمي عندما أهانني لمجرد رغبته في ذلك، كان علي أن أبلع الاهانة ولا أردها ومن ثم أمام عدوي، أمام كل حاجز عندما طالبني الجندي أن أرفع عن بطني أو أطرح قميصي أرضا وأن أدور دورة كاملة، في كل مرة افتقدت الكرامة فيها حقدت على هذا المجتمع.

يجب أن تعرف أني حاولت أن أنسى وأن أكون مثلك، ايمان عميق وثقة راسخة أن كل شيء يتجه إلى الافضل وأن الحياة ستتغير، وأن الكرامة ستعود، لكن ذلك كان بعيد المنال، لم أقو أكثر على الفقر وعلى عشرات الأحلام التي أحلم بها، لا ليست أحلاما، بل هي حقوق، حقي أن أعيش و حقي أن أتزوج، وأسكن بيتا وأمتلك سيارة، تلك حقوق وأتوقع أن الأرض لمن يعمرها، فلماذا تعتقد أني خنت؟، سأتشبث بأرضي ومن يصونها يمتلكها.

ربما تعتقد أني أبرر لنفسي ما فعلت، وأني أقول كلاما غير مقتنع به لكن ثق حقا أني مقتنع، ثم ما يهمني رأيك فأنت الآن ميت.

يا الله لقد تعبت الن ينتهي حديثي مع نفسي، الن أستيقظ من هذا الكابوس منذ أن مات سمير وأنا أتخيل نفسي أحادثه وأبرر وأشرح له لماذا فعلت ذلك؟، يا لله أكاد أموت أشعر أن قلبي يقف في حلقي، لماذا لا ينتهي هذا التفكير؟ عيناه ونظرته تحاصراني كأني أراهما أمامي تعاتباني وكأني أسمعه يقول لي لماذا، لماذا؟ ماذا أخطأت ما الجرم الذي ارتكبته بحقك؟

– هون عليك، ستنسى. . . سينتهي كل شيء.

– متى يا فتحي، متى؟ كنت قد اطمأننت أني ما عدت أحمل هما وما عدت أفكر، لماذا عاد وأستيقظ هذا الضمير ليقض مضجعي؟ ليعذبني لينتقم مني، أرشدني كيف اتخلص منه كيف أتخلص من الندم، لم أكن أعرف أنه

أقسى شعور على وجه الأرض، إنه أشد من الجوع والعطش وأسوأ من كسر القلوب وأشد من الظلم.

- لا أعرف فأنا مثلك وأنت من أوصلني إلى ذلك، لماذا لم يوقظك ضميرك مسبقا؟ قبل أن تورطني معك في هذا المستنقع، نهايتنا معروفة، وطريقنا مسدود، إذا تبنا فالله أعلم ما سيحل بنا، وإذا اعترفنا أو انمسكنا فقد نقتل.

- هذا الطريق لا رجوع منه، لا يمكنني تحمل الفقر، هذا مال جاهز يكفي أن أقدم معلومة أو معلومتين أحيانا تبدو في نظري غير مهمة وأخذ مقابلها مالا، ثم أتعرف مركزي الجديد بعد خطابي الذي قلته في تشييع الشهيد سمير، تهافتت علي كلمات الاعجاب والاطراء حتى أن هناك مسؤولين في الفصيل تحدثوا معي.

- على رأي القول المأثور الحرب يقطف ثمارها الجبناء.

- ماذا تقصد؟

- أنت تختار الطريق الأسهل لتعيش ورغم أنك تدوس على ضميرك الا أنك مستمر، وسمير قاوم وطورد وعاش أياما صعبة لكن لم يصل إلى ما وصلت إليه، من مجرد خطاب رنان أصبحت محط اعجاب في كل مناسبة وطنية، ينادونك لتلقي خطابا حماسيا، عندما تنكشف حقيقتك في يوم ما ستكون الصدمة قوية في نفوس أولئك الذين وثقوا بك.

- أصبحت أخاف منك، إلى ماذا تلمح؟

- لا شيء أنا أستعرض النتائج فقط، أرسم مستقبلك ونهايتك التي حتما ستكون مظلمة.

أطرقت رأسي طويلا من ملاحظة فتحي، ثم بدأت اتساءل هل يحاول فتحي أن يبتزني؟هل يلمح أنه يعلم عني أكثر مما ينبغي؟ يبدو أني أخطأت عندما فتحت له قلبي، أتوقع أنني بحاجة إلى خطة جديدة، ثم نظرت إليه

بدا خائفا كأنه استدرك ما قاله، أعلم أنه لا يثق بي، حاولت طمأنته فأنا لا أريد أن أخسر ثقته الآن ما زلت أحتاجه

فقلت له بانكسار متصنع:

– فتحي، أنت صديقي الوحيد وأسراري معك، أرجو أن لا تفكر غير ذلك، أن نخسر صداقتنا شيء صعب، وليس في مصلحة كل منا.

– أنا حتى لا أتخيل أن يحدث ذلك.

قالها فتحي لكن شعرت أنه لم يكن يعنيها، بدا مختلفا عن قبل، بدا كأنه يخطط لشيء ما، وأنه ربما سيغدر بي، فقمت من مكاني وغادرت المكان، وأمتلأت ندما كيف لي أن أثق بأحد، ماذا ولو بلغ عني الفصيل سيعدمونني دون سؤال، ما العمل؟

تمشيت كثيرا في الطريق المؤدي إلى البيت، ومن ثم وضعت يدي في جيبي فوقعت في يدي شريحة الاتصال والتي أعطاني اياها الضابط الاسرائيلي، والتي يمكنني أن أتصل بها في الأوقات التي أراها مناسبة، ضربت الرقم دون تفكير كان لا بد أن أجد حلا.

الفصل السادس

كان لا بد أن أعرف أن الخائن يبقى خائنا، وأن من يخون صديقا واحدا، سيخون كل اصدقائه بل اهله وأخوته، كيف غاب عن ذهني مكر عزيز ودهائه؟ ولكن ها أنا أقبع في السجن، أحلف مئات المرات أنه لم يكن لي ذنب وأنه هو من فعلها لكن لا أحد يصدقني.

طبعا لا أحد يعرف حقيقته سواي وللتخلص مني بلغ عني قادة الفصيل، مخبرا اياهم أني متعاون مع الاحتلال مقدما الادلة والبراهين على ذلك، ومبينا السبب في معرفة الاحتلال لمكان سمير، هو محل ثقة ولا يمكن لحد أن يشك به أما أنا فكنت غبيا، تابعا له طوال الوقت، يا إلهي كم أنا ساذج! ؟ كان خطئي عندما أخبرته عن اتصال سمير بي.

أراد سمير أن يعطي رسالة لسلمى وكنت أنا صديقه المقرب وابن خالتها وكان من الممكن أن أزورها دون لفت الآنظار، غلطتي كانت إخبار عزيز بذلك، أخبرته بموعدي مع سمير.

أراد أن يعرف أين ومتى سيكون اللقاء وأبدى امتعاضا لاتصاله بي وليس به صارخا طوال الوقت:

– ألست صديقه أيضا؟ ألا يثق بي؟.

لم أشأ أن أخبره بمكان اللقاء، فأنا شخصيا لم أكن أعرف أين هو بدقة؟ لقد حدد سمير تاريخ الموعد ولم يحدد لي المكان بوضوح، في صباح اليوم الموعود اتصل علي من رقم مجهول، كما أول مرة فعل، ثم أخبرني أن أسافر إلى الخليل وأنزل في محطة الحافلات وأنتظر هناك ساعة، فعلت كما طلب مني جلست وأنتظرت أمام بائع فلافل برهة من الزمن، تقدم مني شيخ كبير في السن وطلب مني أن أرافقه إلى محل لبيع الجوالات، وفي الطريق إلى المحل، مد يده داخل جيبه وأخرج مغلفا وأعطاني إياه، شهقت كيف لم أعرف أنه سمير كان متخفيا على شكل عجوز محني الظهر، أشار علي بالصمت، وطلب مني ايصال الرسالة الى سلمى، أخذتها وقفلت راجعا، ربما تلك الحركة هي من أوحت لعزيز الذي كان يتبعني أن هذا سمير فتركني ولحق به، إلى أن عرف كيف يجد مخبئاه.

سلمت الرسالة إلى سلمى ولم أفتحها لأرى ما فيها فرغم غيرتي وقهري الا أني لم أشأ أن أخون الامانة كان فيَ بقية من شرف.

سلمى هي ابنة خالتي الصغرى ولها أخت أكبر منها تسمى عائشة، أحببت سلمى منذ نعومة أظفاري كنت أتسابق لأذهب إلى بيت خالتي، لأرى والعب مع سلمى، كنت أكبرها بعامين فقط، لذلك كثيرا ما لعبنا وركضنا سويا إلى أن بدأت سلمى تكبر، وبدأت تنأى بنفسها عني، أصبحت لا أستطيع أن أراها كما

السابق، لقد تغيرت أصبحت أكثر جمالا وخجلا، وحتى عندما كنت أزورهم لاحقا لأدرس مع أخيها مرعي الذي في مثل سني لم اكن أراها بتاتا.

لم أتوفق في دراستي، كرهت المدرسة ورغبت في الحصول على فرصة للعمل داخل الخط الاخضر، لذلك اجتزت اختبار الثانوية العامة بصعوبة بالغة، كنا أنا وعزيز لا نمتلك القدرات التي تمكننا من النجاح بسهولة، ورغم أن أبي وأمي كانا على خلاف معي على الدوام بما يتعلق بالدراسة، فأبي رغب أن أتم دراستي وأن أحصل على علامات مرتفعة، إلا أن تأثير عزيز علي كان كبيرا، فعزيز ليس لديه الأمل بالدراسة العليا حيث أخبره والده أكثر من مرة أنه ليس لديه القدرة ولا الاستعداد على تدريسه، ومع اختلاف طريقنا عن طريق اصدقائنا سمير ورامز ومرعي الا أننا بقينا على علاقة طيبة، فمرعي حصل على معدل عال تمكن من خلاله دخول كلية الصيدلة وسمير دخل كلية الهندسة بينما أنا وعزيز لم نستطع دخول الجامعة فقررت عدم متابعة الدراسة وكذلك عزيز الذي شجعني على التسلل إلى داخل الخط الأخضر للعمل هناك.

لم ننجح في التسلل من المرة الأولى، لكن المرة الثانية استطعنا الدخول، جلسنا يوما كاملا على الأرصفة حيث يقف الباحثون عن عمل، على أمل أن يأتي أصحاب الاشغال المطلوبة فيختارونا لكن ذلك لم يحدث، وغابت شمس اليوم وما زلنا على الرصيف، قلت لعزيز:

– يجب أن نعود الى القرية، كيف سننام هنا.

– هل أنت مجنون، وكيف سندخل غدا، هل نسيت عذابنا للوصول، والمال الذي دفعناه حتى يتم تهريبنا الى هنا، أنا لن أغادر وسأنام هنا على الرصيف.

– كيف سننام هنا.

– ستتعلم ذلك يا ابن العز.

بتنا ليلتنا على الرصيف، وفي صباح اليوم التالي، عاودنا الوقوف والآنتظار إلى أن حصلنا على العمل في ورشة بناء.

أبدى عزيز شدة وبأسا في العمل، أما أنا فقد كانت معاناة حقيقية بالنسبة لي، جعلتني أقدر حرص والدي ورغبته في أن أتعلم، حقا لم أعد أقوى على هذا النوع من العمل الشاق، قضيت اليوم وأنا أعاني من الإرهاق، ولم أطق صبرا حتى جاء المساء، ولحسن الحظ عرض علينا العاملون أن نرافقهم ونبيت في المكان المخصص لهم، انفرجت أساريرنا لإيجادنا مأوى وسقفا يؤينا.

عدت لوالدي بعد اسبوعين من المكوث في اراض الداخل المحتل، وقلت لهما:

– لن أعاود الكرة ولن أعود إلى ذاك العمل الشاق.

وطلبت إعطائي فرصة لأدرس الثانوية العامة من جديد.

ألتقيت عزيز وأخبرته أني سأعاود الدراسة، ضحك كثيرا وقال:

– هل ستعود إلى ما كنا عليه من الضجر والدراسة، هل تستطيع ذلك؟

– نعم. ما رأيك أن نفعل ذلك سويا.

– لا يا صديقي، أنا أجد ضالتي في العمل، وسأعاود التسلل غدا إلى تلك المناطق.

وفعلا حصل ذلك، وفي ساعات الفجر الأولى تسلل عزيز إلى مناطق الخط الأخضر، ولكن عرفت أنه تم اعتقاله وأنه مكث في السجن شهرين، ربما من هنا قد تم تجنيده، لا علم لدي متى وأين، كنت في شك من رؤيته بعدما استلمت الرسالة من سمير، فهو لا يخفى علي، ولكن عندما تيقنت أنه كان ورائي وتركني ولحق بسمير، حامت شكوكي حوله، لماذا أصر على معرفة مكان سمير، لماذا راقبني؟

واجهته، استفسرت منه كل هذا الاصرار على معرفة مكانه، وأبديت له شكوكي حول رؤيته يراقبني ويتبعني، فلم يكن إلا أن قال لي:

– أنت شريك معي، أنت من أخذت الرسالة، إما أن تصمت وتتعاون أو تجد نفسك في إحدى سجون الاحتلال.

كيف كان لي أن أعرف أنه لا يملك سلطة حتى على نفسه، فأوحى له أسياده تشويه سمعتي واتهامي بالخيانة، وهل كان علي أن أنكر، فقد وُرطت وأقُحمت في هذا الأمر، يكفي صمتي عن الحق حتى حدث ما حدث.

****

الفصل السابع

تعتقد عائشة أنني أمتلك كل شيء لمجرد كوني جميلة لا يخطر ببالها أبدا أني أغبطها، أغبطها على محبة الناس لها، فهي بسيطة ومحبوبة والجميع يقدرها، الجارات يحببنها ولها صديقات كثيرات لأنها نشيطة ومبادرة لمساعدة الجميع ومتحدثة، ترى جارتنا فتسألها كيف حالك، وكيف صحتك، وهل تحتاجين مساعدة، أخبريني إذا ما احتجت إلى شيء ما.

ابتسامتها غالبا ما تعلو وجهها حتى مع آلمها الداخلي. أما أنا فأجد صعوبة في التواصل مع الناس، ألاحظ نظرات الاعجاب بعيونهم، والتي تكون فقط بسبب جمالي الخارجي، لكن أشعر بهم يحسبونني مغرورة، ولا يدركون أنني خجولة، خجولة أن أتكلم بطلاقة مثل عائشة، خجولة أن أعلق على أشياء تعجبني مثلها، وحتما عندما أرد تحية أحدهم أشعر أني أختفي وأن صوتي يخونني.

ليس لدي الكثير من الصديقات، فبعضهن يعتقدن أني لا أحتاج إلى صديقات، فجمالي يغنيني عن ذلك، كنت أود أحيانا أن العب معهن في ساحة المدرسة، كنا قد انتقلنا إلى القرية حديثا، وكنت في الصف الرابع وأذكر دخولي الصف أول مرة واحساسي بالغربة وابتعادي عن صديقاتي الصغيرات منذ سنوات دراستي الأولى.

آلمني أن أمشي في الساحة وحدي إلى أن ألتقيت بعزيزة في منتصف الفصل الثاني من الصف الرابع، نقلت المعلمة عزيزة لتجلس بجانبي على مقعد المدرسة ووضعتنا في أخر الصف، كنا أنا وعزيزة نتمتع بطول مناسب لبعضنا البعض ولكن ليس بالنسبة لباقي طالبات الصف، نظرت إلي عزيزة ولم تنطق بكلمة وبدت غاضبة لنقلها من جانب ابنة عمتها «ميساء» لانها تكثر الحديث والضحك معها و كانت المعلمة قد عنفتها أكثر من مرة بسبب ذلك.

جلسنا أنا وعزيزة صامتتين ليومين متتاليين كنت أدخل الصف قبلها وأجلس إلى الداخل من مقعد الطالب الموحد والذي كان بطاولة ومقعد مشترك، لم نكن نتبادل السلام، كانت عزيزة متوسطة الجمال بضفيرتين جانبيتين مرتبتين بطريقة جيدة جدا ورغم برود ملامحها معي الا أنها امتلكت ثغرا باسما، كان أول كلام بيننا في امتحان اللغة العربية عندما أمسكت المحاة لأمسح خطا وقعت فيه ولم أكن أنظر إلى ما أمسك فأمسكت ممحاتها التي وضعتها على الدرج بجانب تلك التي تخصني، التفتت إلي وقالت:

- إنها ممحاتي أنا، دعيها.

تنبهت المعلمة إلى صوتها فنادت بصوت عالٍ «عزيزة، ماذا هناك؟»، لم تجب عزيزة وبدت في حالة ذهول وحرج فقلت للمعلمة:

- طلبت منها الممحاة فقط، فردت المعلمة:

- يجب أن تحضر كل منكن ادواتها الخاصة بها.

ولم تزد الكلام، أتوقع أنها لم تشأ أن تحدث الطالبات فوضى أثناء حديثها.

بعد الامتحان اعتذرت لي عزيزة عن تصرفها قائلة أني على أي حال لم أكن لآكل الممحاة، في الايام التي تلت ذلك أصبحت عزيزة تلقي علي السلام في الصباح وعند المغادرة ثم أصبحت تبتسم لي في الساحة، لاحقا أحضرت لي ولها تفاحة من البيت أخذتها مني وشكرتني ثم طلبت من صديقاتها أن يسمحن لي باللعب معهن، اعترضن في البداية ثم وافقن، لقد كانت عزيزة بوابتي إلى الحياة.

أصبحت العب مع عزيزة وصاحباتها ولكن لم اكن عنصرا أساسيا في المجموعة حيث كنت اشترك في اللعب حينما تتواجد عزيزة بينما لم يكن ذلك هو الحال عندما كانت تتغيب عن المدرسة وكانت عزيزة تغيب كثيرا عن المدرسة، ولا أعرف السبب ولا حتى صديقاتها يعرفن السبب فرغم أنها ضحوكة واجتماعية إلا أنها لم تكن تتحدث عن عائلتها.

انتقلنا إلى الصف الخامس والسادس ومن ثم السابع وكانت عزيزة تجلس بجانبي وتوافقنا أنا وهي بشكل أكبر ودخلت بيتها، كانت أمها ودودة ومحبة وتجيد الطبخ، عكس ما كانت تخبرني به عزيزة أحيانا من أن أمها تعنفها كثيرا، وتضغط عليها للقيام بالاعمال المنزلية، وأذكر أنها دعتنا يوما إلى بيتها لنتناول اكلة شعبية تحبها عزيزة وهي «المقلوبة».

لم تأكل عزيزة الكثير من طبقها ووضعت لها أمها صحنا حوى خضارا أكثر مما حوى رزا، استغربت ذلك ولم أسال لماذا، تناولنا الطعام في غرفة المعيشة بعد أن أنهينا الوجبة، أحضرت امها علبة دواء وسألتها:

– هل تناولت دواءك؟.

اعترى عزيزة الخجل وأحمر وجهها فقد شعرت بإنكشاف سرها أمامي، لم تجب وإنما انتقلت إلى المطبخ واخذت الدواء سمعتها وهي تعاتب أمها كيف تقول ذلك أمامي، بعد برهة من الزمن عادت ونظرت إلي، لم أشأ أن أسألها ماذا هناك؟أو ما هو المرض؟ ليس لأنه ليس لدي الرغبة في المعرفة بل لأني لم أرد أن

أحرجها أو أن تشعر أن هناك شيئا ما قد كشفته وسيكون ضدها.

نظرت الي ثم قالت:

– ليس مرضا خطيرا أنا مصابة بالسكري فقط.

فغرت فاهي فهي طالما أكلت الحلوى ثم قلت لها:

– لماذا كنت تأكلين الحلوى في المدرسة طوال الوقت.

– لم اشأ أن أبدو طفلة مختلفة ومريضة، أتعرفين ما يعني أن ينتشر عن فتاة فلسطينية أنها مريضة بمرض مزمن، حياتها ستدمر ولن يكون هناك سوى نظرات الشفقة تحيط بها و كلمات مثل اللهم عافنا ومسكينة هي الكلمات الأكثر سماعا في حياتها.

– حسبتك أكثر ثقة بنفسك، أتريدين أن تجعلي كلمات ونظرات الناس هي من تحدد مصيرك؟ خلتك أقوى من ذلك بكثير، يا الله أنت حقا هشة من الداخل.

لكنها حتى لم ترفع رأسها لتنظر إلي بل بقيت صامته فلم أدر ما أقول، بدت عنيدة إلى حد لا يمكن معه أن تغير رايها، ثم توالت غياباتها أكثر فأكثر، سمعت لاحقا أنها ترفض تناول الدواء مما أثر على قدمها ونظرها فجئت لزيارتها، رايتها مستلقية وقد فقدت رجلها لم أتمالك نفسي بكيت بحرقة شديدة، وهي كذلك ولم أنطق باي كلمة لم يكن هناك ما يقال، ولم يكن هناك مجال للعتاب وتحميل المسؤولية لم نردد سوى الحمد لله وقدرها هكذا.

الاستسلام للواقع، الاستسلام المر والاعتراف بالهزيمة أنك أضعف من أن تغير في حياتك شيئا، أيعقل أننا لا نملك إتخاذ أي قرار أو تحديد أي سبيل نسلكه، ماذا لو تناولت عزيزة الدواء؟ ماذا لو اتبعت حمية أفضل؟أما كان مصيرها مختلفا؟.

أنا الآن في السنة الأخيرة في المدرسة، انقطعت عزيزة عن الدراسة منذ زمن

بعيد ومنذ ذلك الوقت وأنا أعيش في وحدة تامة، لم أستطع تكوين صداقات جديدة، لا أعرف لماذا، علاقتي جيدة مع المعلمات وطالبات الصف لكن لا شيء مميز لا صداقة قوية مع باقي الطالبات، فمكان عزيزة في قلبي لا يجاريه أحد.

دأبت على زيارتها والاطمئنان عنها، كنت أنقل لها أخبار المدرسة والمعلمات من بقيت ومن غادرت، والطالبات من تزوجت ومن تركت مقاعد الدراسة وكان يأخذنا الحديث لساعات حتى أنه أصبح يؤثرعلى دراستي فبدأت تشتكي أمي من تلك الزيارات المتكررة.

كنت استمتع بزيارة عزيزة لكن كنت أتضايق من أخيها عزيز، لقد كانت نظراته غريبة وكنت أتعمد زيارتها عند معرفتي بذهابه إلى العمل وتغيبه لفترات طويلة إلا أنه كثيرا ما كان يعود قبل موعده، وقد يكون هذا السبب في عدم رغبتي في الذهاب كثيرا إلى عزيزة، لقد أخبرتها في أخر لقاء أن المواد صعبة، وأني أحتاج إلى الدراسة المكثفة لأنجح، بدت مستاءة ودمعت عيناها فأنا بوابتها إلى العالم الخارجي خاصة أنها لا تغادر المنزل ولا تستطيع المشي جيدا.

لكن السبب الحقيقي لعدم ذهابي كان عزيز، كنت اكرهه واكره نظراته، اكره كل شيء فيه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه حتى وقع اقدامه عند المشي وحتى طيفه إذا هل، وكم جن جنوني عندما أخبرتني عزيزة في أخر زياراتي لها أنه يرغب بالزواج مني شعرت أني سأنفجر، وسأذهب إليه لأصرخ فيه حتى يتطاير أمامي لأخبره مرارا وتكرارا أني اكرهه ولا أتصوره أمامي، فكيف أقبل به زوجا؟ هل فقد عقله أم مسه ضرب من جنون؟

لذلك كان أفضل ما حصل لي أن يلي كلام عزيزة، حضور سمير وأبواه لخطبتي، طبعا فرحت كثيرا ليس لأني أعرف سميرا شخصيا فأنا أعرفه من السمعة الطيبة التي تحيط به، من حديث قريباتي عنه في الجامعة فأبنة خالتي سعاد وابنة عمتي مريم وابنة خالي فدوى وغيرها تحدثن عن نشاطاته كرئيس اتحاد

الطلبة، فهن ما انفككن يتحدثن عن أدبه الجم وعن طلعته ونور وجهه المضاء بنور الايمان وبره بوالديه، لذلك لم أصدق نفسي عندما حصل ذلك، حتى أن الغرور أصابني وتخيلت منظر زميلاتي وانا أخبرهن بذلك وشيئا أخر أن تلك الكوابيس التي طاردتني ليومين قد تختفي فقد كنت أحلم مرارا وتكرارا بعزيز وهو يخبرني:

– ستكونين لي مهما كلف الأمر.

لقد قال هذه الكلمة في زيارتي الأخيرة لعزيزة، وعندما أخبرتني برغبته الاقتران بي، قلت لها:

– أنا لا أفكر في الزواج، ثم أن أخاك لا يروقني.

ويبدو أنه كان يقف خلف الباب فلما هممت بالخروج، أمسك بيدي بشدة قائلا:

– أعدك أنك لن تهربي مني، ستكونين لي مهما كلف الأمر.

****

الفصل الثامن

سلمى يصيبها الاكتئاب، كم يبدو الأمر سخيفا، فسلمى هي أخر العنقود، البنت المدللة في البيت، صاحبة العيون الجميلة والشفتان المنفوختان والقوام الجيد.

ما انفك طالبو يدها يتقدمون الينا منذ أن كانت في الخامسة عشرة من عمرها، أمي تفرح كثيرا بكثرة العروض وربما كانت تبتهج أكثر عندما تحاول أم فلان اقناعها بقبول ابنها معددة مزاياه وصفاته، فتلك تروج لها ابنها على أنه فارس الفرسان وبطل الأبطال وأنه من الشهامة والرجولة بمكان بحيث تتمنى كل بنات الحي نظرة من عينيه أو التفاته من جانبه، ولكن هي- أمه - لم يلفت نظرها غير ابنتنا سلمى تلك الجميلة المؤدبة ذات الأخلاق العالية، وكنت أشعر بأمي تلقي إلي بنظرة من طرف خفي وأنا أحمل «صينية»الشاي إلى ضيوفها

فتزم شفتيها وتطأطئ رأسها وفي عينيها نظرة حزن وشفقة فأنا البنت الكبرى وبيني وبين سلمى أربعة أخوة، ويبدو أن القدر أراد أن يعوض أمي بشاعة منظري وكوني أنثى وبكرها فمن عليها بأربعة ذكور بعد صدمة العائلة عند مولدي فعلى رأي الجارات عندما حضرن للتهنئة بقدوم سلمى حيث قالت احداهن: «البنت الحلوة نصف مصيبة» فكيف بي أنا، إذن كنت مصيبة كاملة.

كثيرا ما كانت أمي تدعو لي بالزوج الصالح رغم معرفتها أن هذا الحلم قد يبدو مستحيلا وكانت تقول لي دائما «أنت ماهرة في أعمال المنزل ونشيطة وتمتلئين حيوية وطاقة، وهذا بحد ذاته جمال، الا أني لم أكن أقتنع بكلامها فهذا ليس مفهوم البشر للجمال».

كثيرا ما كان يؤلمني كلام الجارات عندما يجتمعن عند أمي وندخل أنا وسلمى إليهن فيقلن الصغرى أجمل من الكبرى هذه بيضاء وتلك سمراء، كنت أنسحب إلى داخلي لأنكمش فيها.

لقد انتبهت لقلة جمالي من عيون الناس وكلامهم، كنت طفلة العب وأجري وكانت أمي تلبسني أجمل الثياب وتجدل شعري بأربطة ملونة، لم يخطر ببالي أبدا أني لست جميلة بل أحسست نفسي أميرة، خاصة عندما كنت الف ثوبي الجميل ليدور حولي في حركة نصف دائرية، شعرت بذلك عندما كان يحملني أبي ويدللني كأنه لا يوجد في الحياة دوني أحد حتى عندما رزق بإخوتي الذكور، كنت أنا المدللة فاتنة قلبه وملكة عرشه، كنت سعيدة حتى العاشرة من عمري عندما ولدت سلمى وبدأت المفارقات والمقارنات من أبي وأمي وأخوتي والعمات والخالات والجيران، لم أعد العنصر الفريد في البيت أو الحالة الخاصة والجوهرة الثمينة.

دأبت على خدمة أمي والجارات المهنئات بقدوم سلمى وتعلمت أشياء كثيرة في تلك الفترة، لقد بدأت فترة النضوج المبكر بما احتوته من ملاحظات ونصائح جديدة «لقد كبرت وأصبحت عروسا ويجب أن تساعدي أمك»، «عائشة، أعدي الشاي»، «عائشة امسحي هنا نظفي هناك عائشة. . . عائشة. . . عائشة.

تعلمت معنى المسؤولية وعدم الاهمال وتعلمت أن كل شيء يمكن أن ينتقد، كمية سكر في الشاي جعلتي مذاقه أكثر حلاوة مما يجب، أو كمية أقل جعلته أقل مما يجب.

اهتزاز «الصينية» أثناء إحضارها، سقوط كوب شاي وكسره، كسر طبق أثناء تنظيفه كلها كانت جرائم كبيرة استلزمت اللوم والتقريع.

لكن أنا أحببت سلمى أيضا كما الجميع أحبها، أحببت البراءة والنظرات الشقية أحببت الضحكة الرنانة والحبو تحت الاثاث، لكن انتظرت وتوقعت أن تأخذ سلمى دوري في العاشرة من عمرها وأن تخوض تجربتي لكن لم يكن الحال كما اشتهيت، لم يطلب منها شيء في العاشرة، وبقيت الصغيرة التي لا تفهم شيئا ولا يمكنها عمل شيء وبقيت أنا الكبيرة التي يجب أن تقدر وتفهم وتعمل دون شكوى أو ملل.

كان يتوجب علي من بين كل ذلك الدراسة أيضا، وأن أحصل على أعلى العلامات، لكني فقدت اهتمامي بالدراسة، لم أجد وقتا لها ولم أستطع المتابعة وبدأت علاماتي تنخفض من صف إلى أخر حتى حملت لقبا جديدا إلى القابي الأخرى «الغبية».

سمعت كثيرا شكاوي أبي إلى أمي من أمرين يقلقانه قلة جمالي وقلة ذكائي، إلا أن أمي كانت واثقة بقدراتي التنظيفية والمطبخية والتي شكلت لها ذكاء من نوع خاص في ادارة البيت وشؤون المطبخ، فأنا أجيد الترتيب وإتقان العمل، وسأكون «ربة بيت» ممتازة لكن هل سيأتي البيت؟ربما كان هذا هو السؤال الذي أقلق أبي أكثر من أمي.

مرت أيام وأحيانا اشهر نسيت فيها وجهي، كنت لا أريد أن أنظر إلى المرآة، لكن على مستوى الدراسة كنت أغرق في محاولاتي البائسة لأصل إلى التفوق ضمن

الوقت الذي أحصل عليه في اليوم ولكن لم يكن مجرد النجاح يرضي أبي ولم تكن مجرد المساعدة ترضي أمي.

كانت حياتي عادية، اعتدت على كل شيء ومع الايام زادت ثقتي بنفسي وأصبحت أرى نحولي وسماري وأنفي الدقيق لا بأس به، وعينيي العاديتين جميلتين، ولم أكترث عندما جاوزت العشرين عاما من عمري، ولم أكترث عندما لم أنجح في الثانوية العامة، إذ لم أكن أرغب في الذهاب إلى الجامعة، لم أشأ أن أواجه العالم.

حياتي كل شيء فيها يسير وفق نمط معين كما رسم له أن يكون، أشبه بدوران الكواكب حول الشمس فلا تغيير يحدث عليها، ذات الأعمال المنزلية كل صباح، والتي تبدأ في السادسة صباحا وتستمر إلى الحادية عشر ليلا، وذات جلسات الجارات وحديثهن المستمر عن فلانة وعلانة وكنت أتساءل إن كن عند حضورهن يثرن الحديث عن الأخريات أو بالأحرى عن الجارة الغائبة عند كل جلسة، فلابد أنهن يثرنه أيضا عنا مع نساء أخريات، وكنت أتساءل هل كنت أحيانا محور حديثهن «ألم تزف بعد ابنة جارتنا ابتسام» وقد كنت أسمعهن أحيانا يسألن أمي بعد أن أقدم الشاي «هل يتقدم شبان إلى عائشة؟»، وحتى هذه الأسئلة، لم تكن تتغير أو تتبدل، لكن رغم كل هذا الانشغال بالأشياء الروتينية، والتي لا تدرك العائلة أهميتها الا عندما يختفي من يقوم بها، فأنا مهمة جدا عندما لا يجد أخوتي لباسا مكويا، أصبح لحظتها محور الحديث، أين انت، ماذا تفعلين طوال اليوم؟ تلك الاعمال التي تقتل وقتي وتسرق عمري، تصبح مهمة جدا لعدة لحظات في نهاية المطاف، أنا كنت نكرة، ميسرة أعمال تنظيف فقط وليس أكثر، استطعت أن أجد وقتا للقراءة، كانت القراءة عالمي الذي حلقت به إلى البعيد، الكتاب هو من أمسك بيدي ليريني العالم فنقلني من الصحاري إلى الجزر ومن القرى إلى المدن حتى أنه أسكنني في كبرى عواصم العالم وأدخلني في مشاكل معقدة وحلول مستحيلة.

لكن بعد أن تركت المدرسة، افتقدت الكتب، لم أعد أستعير كتبا من مكتبة المدرسة البسيطة، كانت المعلمة «فاتن»، أمينة المكتبة تعرفني وتميزني من بين الطالبات، قالت لي ذات مرة:

– عائشة، أنت قارئة جيدة، فلماذا لا تجتهدين في دروسك أيضا؟.

أجبت عليها بلا مبالاة:

– أنا فقط. . لا أجيد الحفظ.

كان كل شيء يسير على ما يرام حتى بدأ طالبوا يد سلمى بالتوافد على المنزل ولم تكن المشكلة في زواج سلمى قبلي، لم أكن اشعر بالغيرة من ذلك ولم يكن يعد يعنيني تزوجت أم لا، المشكلة كانت عندما رأيته.

حضر يومها مع أبي سمير ووالدته وسمير، نظرت إليه من نافذة المطبخ التي تطل على الشارع ورأيتهم يقفون عند بوابة البيت، لفت نظري شاب طويل بشعر أسود وبشرة حنطية جميلة، وقف باعتدال وفتح البوابة لوالدي سمير ثم دلف شابان، أحسست بغصة في قلبي، وأعتقدت أنه هو سمير، وقتها فقط شعرت أني لا شيء ونظرت إلى نفسي وشعرت بضآلتي، بدوت بلا حياة. كم هو مزعج هذا الشعور القوي الذي يجذبك نحو شخص ما ويجعلك تفقد ثقتك بنفسك، ويشعرك بأنك صغير وأن نظرة أو التفاته منه قد تحييك.

جلس أبي وأمي وأخواتي قرابة الساعة مع الضيوف أثناء ذلك، أعددت القهوة والشاي وقدمت العصير، ثم نادت أمي سلمى لتدخل إليهم فقد تم الاتفاق وقراءة الفاتحة حتى قبل أن ترى سلمى سميرا أو يراها، قبل أن تدخل سلمى لاحظت أن الشاب الطويل قد غادر المنزل وبقي الشاب الأخر، لحظتها ارتسمت على ثغري ابتسامة، كأنما هناك أمل لاح في الافق أو شعور أن هناك فرصة، ارتحت لعلمي أنه لم يكن سميرا.

بعد ذلك تغيرت، لقد شغل فكري وسكن ذاكرتي، طريقته الأنيقة الجانبية في فتح باب الحديقة، يداه اللتان شعتا نظافة وبريقا، نظرته إلى أسفل عند الاستئذان، طوله الفارع، لكن لماذا؟ لماذا ظهر في حياتي ليقلبها غما وكمدا؟، ما الحكمة من تلك اللقطة التي استمرت دقائق أو أقل والتي ظهرت في شريط حياتي لتقلبها، لتثير قلقي، لتسلبني راحة الفكر لتجعلني أغوص وأغرق في نفسي الضجرة، لتجعلني أستاء من ذاتي وليجعلني أمقت وجهي وعينيَ وشعري وكل ما هو ليس بجميل، لأرسم أحلاما وأوهاما، ثم أعود ساعات أحث نفسي على النسيان وأن هذا الامر من المستحيل بمكان أن يكون، ولكني اقنعت نفسي أني سأنسى فأعمال البيت والآنشغال الدائم سينسيني لكني لم أكن أنسى لقد تحدثت أمي عنه وعرفت أن اسمه رامز، وهو ابن خالة سمير مهندس مثله وقد سبق وتخرج من الجامعة إذن مهندس، تنهدت وقلت في نفسي «زاد المستحيل درجة».

دأبت أمي لاحقا على التخطيط للعرس وتحضير ثياب سلمى، تحسست الثياب وتحسست النعومة في كل قطعة منها ورسمت أحلاما لنفسي مع من تخيلت أن يكون يوما لي في الماضي، كنت أرسم خيالات لشخص ما ربما لا يكون له وجود في الحياة، لكن بعد خطبة سلمى أصبحت أرى رامزا، لم اتخيله كاملا ولم أستطع تخيل لون عينيه بل حلمت به دائما في نصف الاستدارة التي رأيتها فيه عندما فتح الباب ونفس الطول والشعر الأسود المقصوص بعناية.

وكنت أنفض رأسي من تلك الافكار كما ينفض الطائر ريشه من البلل، كأنما أستفيق على الواقع المر أن ذلك لن يكون ولن يصبح حقيقة.

حيرتي وبرودي أصبحتا ملحوظتين للجميع، وحسبت أمي أن الغيرة قد فعلت بي ما فعلت، فقررت أن تأخذني إلى خالتي «مليحة» فاقضي عندها يومين فترتاح نفسيتي ويُرد لي بعض من الراحة، تقت إلى تلك الرحلة كثيرا فأنا أحب خالتي

مليحة ثم أن بإمكاني أن أمضي وقتا مسليا ينسيني التفكير فيما يتمناه القلب ويشغل البال ولا تطوله اليد.

استيقظنا أنا وأمي الساعة الخامسة صباحا فخالتي تسكن في مدينة الخليل وهي تبعد عن قريتنا قرابة الساعتين، لم نحمل الكثير من ملابسنا لكنا حملنا لخالتي بعض الهدايا، وضعت أمي بعض نبات «الميرمية[1]» وقامت قبل اليوم بعمل «المفتول[2]» فخالتي تحبه.

كان أبي قد اتفق مع سائق حافلة عمومية ليقلنا إلى مدينة رام الله ومن هناك سوف نستقل الحافلة إلى الخليل، أخذت منا الطريق إلى رام الله ساعة كاملة ومن رام الله إلى الخليل قرابة الساعتين وخلال ذلك الوقت كان كل شي بالنسبة الي أشبه بالكابوس، فأنا أكره السفر، وأضيق ذرعا به.

وصلنا بيت خالتي بعد الظهر بقليل، استقبلتنا خالتي بحفاوة فهي تعيش وحدها منذ أن هاجرا ولداها إلى «أمريكا» قبل ثلاثة أعوام وقد وعداها باصطحابها إلى هناك حالما يحصلان على الجنسية الامريكية، سألتها أمي

- كيف حالك؟ وكيف حال أولادك هل تتصلين بهم؟

- الحمد لله أنا بخير وهم كذلك، لقد اتصلا بي قبل أيام على الهاتف الأرضي، هما بصحة جيدة، حياتهما مستقرة، محمد يعمل في مخزن كحارس، لقد نسي شهادة الهندسة التي حصل عليها، كم تكلفنا أنا ووالده ديونا وقروضا ليحصل عليها، والآن فضل السفر على البقاء في هذه البلاد ونسي كل شيء، أهله ودراسته وعلمه.

- قد يتغير الوضع وقد يعود أو يتمكن من الحصول على دراسة أعلى هناك كما كان يخطط، وبالتالي سيعمل بها، وماذا عن زوجته الامريكية؟

1. نبات المرمية: نبات عشبي طبي يشرب بالعادة مع الشاي
2. المفتول: اكلة شعبية فلسطينية تصنع من حبوب القمح

- تقصدين المكسيكية، انها بخير، يصبر عليها حتى يحصل على الجنسية، ومن ثم كما يقول لي دائما سأدعك تختارين لي، طبعا هذا لن يحدث أبدا بعد أن أصبح له ولدٌ منها.

- يا إلهي، هل أصبح له ولد، هذا يعني أنه ارتبط بها إلى الأبد.

- لا تزيدي وجعي أرجوك، كل ما أردته هو أن أرى أبنائي حولي والعب مع أحفادي وها أنذا وحيدة وحتى قرة عيني حسن قد غادر هو الأخر.

بدأت دموعها بالتساقط وحتى أن نحيبها وصل إلى مسمعي في الغرفة المجاورة التي دخلتها لأرتاح من عناء السفر، وضعت الغطاء جانبا ثم وقفت على رجلي وتوجهت إلى غرفة المعيشة حيث جلست خالتي وأمي، كان بيت خالتي واسع ورثه زوجها عن أبيه، وكان لهم من الأراضي ما يحسدهم عليه الكثير من الناس، ولم تنجب سوى ولدين وابنة واحدة، توفيت الابنة عندما كانت في السادسة بسبب مرض غريب، ربما يكون السرطان لكن خالتي ترفض البوح بذلك، أما ولداها فقد هاجرا إلى الولايات المتحدة وهي الآن وحيدة وتعيسة.

اقتربت منها وقلت: كم هم أبناء عاقون! كيف استطاعوا تركِكِ وحدك هنا ما الذي كان ينقصهم حتى يهاجروا; مالا أوفر أم عملا أفضل؟.

نهرتني أمي بشدة فهي لا تريد أن نزيد من حنق خالتي، تنحنحت وأبديت أسفي، فأنا مندفعة في الكلام دون تفكير مسبق، وكانت هذه أيضا ميزة تضاف إلى مزاياي الكثيرة على ما يبدو.

تناولنا الطعام سويا ثم جلسنا على شرفة مرتفعة قليلة من جهة الغرب تطل على الحديقة المحيطة بمنزل خالتي، توفي زوج خالتي منذ حوالي أربع سنوات أي قبل سفر أولادها، كان زوجها رجلا طيبا ومستقيما، وعمل في وظيفة حكومية وقد كان وقتها من القلائل الذي استلموا وظائف حكومية وبدا منشرحا وسعيدا

إلا أن الكثير من الناس كانوا يتهامسون عليه، اعتقدوا أنه موظف فاسد وأنه مغرور، فاسد لانهم غير مقتنعين أن موظفا حكوميا قد يكون لديه أملاك رغم عرفة بعضهم أنه ورثها عن أبيه، وأعتقدوا أنه مغرور، لانه كان قليل الكلام على رأي خالتي لم يحب «اللعي» ولذلك لم يكن يضيع وقته في أحاديث لا نفع منها.

أثناء وجودي في بيت خالتي لم تتغير الأمور كثيرا بالنسبة إلي، فقد حملت نفسي مسؤولية التنظيف والعمل المتواصل، وقفت خالتي إلى جانبي بعد ثلاثة أيام من حضورنا وقالت:

– عائشة، إذا كنت متعبة فأذهبي وارتاحي فعلى كل حال لن يشعر بك أحد كما تشعرين أنت بنفسك، لن يكون هناك شخص ما يقول لك إذهبي وارتاحي، فالناس لا يشعرون الا بأنفسهم.

– أنا لا أتعب من العمل يا خالتي، بل بالعكس فإنه يسليني، ما يتعبني حقا، هو حياتي التي تنساب من بين يدي بلا معنى أو أمل بالتغير، فأنا لم أفعل شيئا مهما حتى الآن لم أنهى دراستي ولم. . . .

وأطرقت رأسي أحسست بالخجل من ذكر عدم زواجي، لم تكن نظرتي إلى الزواج من أجل فكرة الزواج، بل توقا مني إلى تغيير روتين الحياة والاحساس بالقيمة الاجتماعية، فالمجتمع لا يمنح العانس واجبات أو مكانة في المجتمع، أن أكون صاحبة قرار، يعني أن أكون زوجة وأما، وبالتالي يصبح لي حرية الاختيار والحركة وتبادل الزيارات الاجتماعية والمشاركة في المناسبات.

إلا أن خالتي تنبهت إلي، وعلمت ما يدور بخلدي، نظرت إلي طويلا ثم قالت:

– أنتِ جميلة يا عائشة وليس كما تتوقعين، ملامحك هادئة وجمالك الداخلي راق جدا.

– خالتي هذا كلام كتب أو فلسفة حكيم أو قول صاحب خبرة وتجربة ولكن

الحق وفي الواقع لا أحد يهتم بالجمال الداخلي، فالخارجي هو أهم ما يميز الفتاة.

- هل تعتقدين أن حياة الفتاة مربوطة فقط بزواجها، يمكنك أن تكوني ما تشائين ويجب أن تمتلكي الثقة بالنفس لفعل ذلك ماذا لو رجعت إلى المدرسة.

- خالتي، هذا مستحيل، ثم لن أجد وقتا للدراسة وكذلك أهلي وأخوتي لن يوافقوا.

اقتربت مني ولفت ذراعها حول عنقي وربتت على كتفي ثم قالت:

- لا تضعي العراقيل، التي ربما لن تكون موجودة منذ البداية، فلماذا سيرفض أهلك مثل هذا الفعل أنهم يحبونك ويريدونك سعيدة.

طأطأت رأسي وبدا طيف ذاك الطويل في مخيلتي، وغرقت في داخلي من جديد وخيل الي أنه يجب أن أنام طويلا حتى لا أستفيق على ذلك الواقع المزعج والممل والرتيب.

رفعت رأسي وقلت:

- سأفكر في الموضوع، ويبدو أن هذه هي خياراتي الوحيدة المتاحة في الحياة.

وضعت ما بيدي من أطباق ثم مشيت ببطء إلى غرفة النوم حيث نمكث وهي غرفة ولديها المهاجرين، أصابتني فجاة حالة من الاحباط والرغبة أن أبقى في سريري، اضم الي وسادتي دون حراك وتبقى عيناي مفتوحتين دون أن أرمش، تتأملان نافذة مقابلة لي وعقلي يفكر ويصور لي دونما رحمة أو شفقة أني امرأة بلا هدف ولا مواهب ولا جمال.

قررت أمي وخالتي أن يزرن الاقصى فالخليل قريبة من القدس ولا يستغرق السفر مسافة كبيرة، فرغبت أيضا بالذهاب، كنا نستطيع الذهاب إلى القدس دون عراقيل أو تصاريح، استيقظنا باكرا وتوجهنا إلى القدس التي لا تبعد سوى عشرات الكيلومترات عن الخليل.

نزلنا في منطقة قريبة جدا من مكان الحرم القدسي كأنه محطة حافلات، لم

أميز المكان كثيرا كانت تلك زيارتي الأولى للحرم القدسي مشينا مسافة لا بأس فيها داخل سوق عربي وأنتشر بعض الباعة المتجولين أو ما يسمونهم بأصحاب «البسطات» على جانبي الطريق، لفتت كثيرا نظري البضائع المتنوعة والتي بدت جميلة ومتنوعة من مأكولات وملابس و أحذية، أسرعت الخطى عندما لاحظت أن أمي وخالتي قد ابتعدتا مسافة عني حيث لم تعد البضائع تلفت انتباهن، قطعنا الشارع بإتجاه باب العامود، وقفت لبرهة من الزمن أنظر إلى ذلك السور العظيم وتلك البوابة الرائعة والجسر المؤدي إليها ثم نزلنا السلالم متوجهين إلى البوابة، عندما وصلت إلى بداية الممر الحجري المؤدي إلى مدخل المدينة القديمة، وقفت لأنظر إلى بوابة «باب العمود» طفت بنظري على كل حجر فيها ولما وصلت عيناي إلى النصوص المنقوشة باللغة العربية شعرت بشعور الفخر، وقلت في نفسي كان اجدادنا العرب عظماء ومبدعين، ثم تنبهت إلى أن خالتي وأمي ليستا أمامي لا أدري لماذا يجب أن يسرن بهذه السرعة و «على حساب» دائما تشتكي أمي وتقول «آه يا رجليَ، أنهما تؤلماني، لا أشعر بهما» يبدو لي ذلك واضحا جدا الآن. مشيت بأقصى ما أستطيع من سرعة لكن بدا السوق عائما بالناس والممرات ضيقة، ولم أعرف في أي اتجاه أسير ثم سمعت صوت ينادي من خلفي «عائشة، نحن هنا »، التفت لأرى خالتي وأمي تقفان أمام بائع للكعك، يبدو أنهن سيأخذن وجبة الافطار معهن إلى الحرم، ربما سيصلين الظهر والعصر هناك، طبعا مع نداء أمي نظر بعض المارة الي، لقد بدوت كفتاة تائهة، بعضهم نظر إلي نظرة استغراب، فأنا كما هو واضح لست طفلة بل أنا في الثامنة والعشرين من عمري، انتابني الخجل وشعرت بالحمرة تتصاعد إلى وجنتي، عدت إلى الخلف ووقفت بجانبهن، ثم أكملنا مسيرنا حتى وصلنا الحرم.

هالنا عندما وصلنا الحرم العدد الكبير من شرطة الاحتلال والجيش، ولم نفهم ما هي الحكاية؟ذهلت عندما دخلت إلى الحرم القدسي من هيبته وجماله، توجهنا إلى مسجد قبة الصخرة حيث دأبت العادة على أن يكون هو مصلى النساء بينما يصلي الرجال في المسجد الاقصى المبارك.

جلست في مسجد قبة الصخرة أتامل تلك النوافذ المزخرفة بأحجار ملونة وإلى القبة الداخلية، وعندما اتممنا الصلاة جمعا، توجهنا أنا وأمي وخالتي إلى باب صغير دلفنا منه إلى سلم أوصلنا إلى حجرة تحت الأرض وكانت كما هي من الاف السنين، اشبه بالمغارة ليست ممسدة الحوائط، قالت أمي لنصلي ركعتين هنا حيث أن هذه هي الصخرة التي أسري بالرسول عليه السلام منها إلى السماء، انتفض قلبي عند سماع ذلك فصليت ودعيت الله ما شاء لي أن أدعو، ثم خرجنا.

قالت أمي: لنمكث حتى صلاة العصر، التفتت إلى أمي وقلت لها:

– أريد أن أتجول في الحرم.

وافقت أمي على ذلك ونهضنا لنقوم بجولة حول المسجد، وقالت أننا سنزور المسجد الاقصى ثم المسجد الاقصى القديم والمصلى المرواني واللذين يتواجدان تحت الأرض، خرجنا من المسجد عبرالباب المواجه للمسجد الاقصى، وما أن نزلنا الدرجات حتى لاحظنا وجود كثيف لرجال شرطة الاحتلال، تناهى الى مسمعنا صيحات وصراخ أناس هاربين وأصوات مدوية لطلقات رصاص غير واضحة المصدر، التفت أمي إلى إمراة وقفت على مقربة منا وسألتها: ما الذي يجري؟ ماذا هناك؟

لا أدري، يبدو الوضع غير مطمئن، هناك ضجيج وأناس يتراكضون من مكان إلى أخر!.

– الله يستر.

بعد قليل سمعنا أصوات إطلاق نار قريب منا، تمسكت بأمي وأمي كذلك تمسكت بي ثم قالت خالتي:

– لنختبيء، لنعود إلى مسجد قبة الصخرة، هيا، أسرعن.

هرعنا إلى المسجد لكني توقفت وقلت:

- انتظري يا أمي، لنرى ما سيحدث.

- أسرعي يا فتاة هناك إطلاق نار، صرخت خالتي بحدة.

أعترف أني كرهت نفسي للجبن الذي اعترانا، لكن بررت لنفسي أنه كان لا بد لي من العناية بعجوزتين فما كان علي أن أفعل، ورغم أن فضولي يدفعني إلى أن أقف وأنظر ما يجري إلا أني لم أستطع أن أمنع قلبي من الخفقان بسرعة وشعوري اللأرادي يدفعني لأجيب طلب أمي وأسارع للاختباء.

وصلنا المسجد وهناك وجدنا نساء كثيرات واقفات يتساءلن ويتوجهن بالدعاء الى الله أن تسير الامور على ما يرام وأن يلطف الله بشباب فلسطين، قالت إحداهن أن وزيرا من حكومة الاحتلال أو شخصا مهما لديهم دخل المسجد ويدعى شاروون.

ردت عليها أخرى:

- لماذا يدخل هذا المستوطن الحرم؟.

الآن الوضع ازداد سوءاً بالخارج، وبدا أن هناك شهداء يسقطون، فقد رأينا شاباً مضرجاً بدمه وهب لحمله فتيان ثم هرعوا به إلى خارج أبواب الحرم.

قالت خالتي:

- يجب أن نغادر.

صرخت بأعلى صوتي:

- وصلاة العصر.

- سنصلي في البيت، هيا بنا، لنتبع تلك السيدة ونسألها كيف ستخرج؟.

تبعنا سيدة جليلة تلبس لباسا أبيضا، ويظهر أنها في العقد الخامس من عمرها، لحقت بها خالتي وسألتها «كيف ستخرج؟» فقالت لها أن ابنها سوف يأتي لأخذها من هنا وطلبت أن نبقى معها، فأنتظرنا أمام الباب الخلفي للحرم وغير المواجه للمسجد الاقصى، بعد قليل جاء ابن المرأة، وصحبنا إلى بوابة الخليل ومن هناك استطعنا الخروج ووصلنا إلى محطة الحافلات إيابا إلى الخليل.

عدنا إلى البيت ونحن في حالة يرثى لها من التعب وجال في خاطري حظي السيء فسخرت من ذلك قائلة بصوت عال «أرأيتن!، لقد أغلقت القدس على حظي».

ضحكت أمي وخالتي وأردفت خالتي بالقول:

– «المتعوس متعوس ولو حطوا على رأسه فانوس».

مكثنا عند خالتي بعد تلك الزيارة ثلاثة أيام أخرى، وهكذا نكون قد مكثنا لديها أسبوعا كاملا، كان أسبوعا لا بأس به، بدت نفسيتي أحسن وقررت أن أعاود دراسة الثانوية العامة علني أنجح هذه المرة، فلا يجب أن أستسلم لليأس كما قالت خالتي ثم في قرارة نفسي تأكدت أن هذا هو المخرج الوحيد من حياة الرتابة التي أعيشها.

وحزمت أمي الحقائب وخرجنا من عند خالتي بعد تناول الافطار، كانت الساعة قد قاربت التاسعة صباحا، انتظرنا سائق الحافلة، جلسنا في الشرفة الأمامية للمنزل، ونحن على أهبة الاستعداد للمغادرة، لكن السائق تأخر، اتصلت خالتي عليه أكثر من مرة فأخبرها أن هناك حاجزعلى مدخل المدينة، وأن الازمة خانقة وأنه سيتأخر ثلث ساعة اضافية، أغلقت خالتي الهاتف وقالت:

– سيتأخر على حد قوله ثلث ساعة اضافية بسبب حاجز على مدخل المدينة، لكن في مفهوم سائقي الحافلات هذا يعني أنه سيتأخر ثلاث ساعات، فهم قلما يصدقون من حيث الوقت.

تأففت والدتي وقالت:

– لقد تأخرنا كثيرا فالوقت قارب على الظهر، متى سنصل؟

– لا أعرف ماذا أقول لك يا أختاه، فالوضع متوتر، وهناك مواجهات بين الشبان بدأت بالأمس كما شاهدنا على التلفاز، فمنذ زيارة «الملعون شارون» ودخوله الحرم القدسي والمواجهات لا تنفك تستعر.

رددت بقوة:

– لقد استشهد داخل القدس سبعة شبان، الا يوجد لهؤلاء الشبان من فورة دم؟

نهرتني أمي:

– اصمتي يا عائشة، لا نريد مشاكل دعينا بعيدتين عنها.

– حسنا يا أمي، سنسير بجانب الحائط، الخوف أن يتحدث الحائط ويقول لنا لا تسيروا بجانبي.

قالت خالتي: هوني عليك يا عائشة، ستهون إن شاء الله.

انتظرنا قرابة الساعتين، ومن ثم جاء السائق وأخبرنا أن الحاجز مغلق وأنه اضطر أن يمر ضمن طرق التفافية حتى يصل وأنه قد يلجأ إلى ذلك أثناء العودة وأيضا سيأخذ منا أجرة أعلى مما تم الاتفاق عليه مسبقا نتيجة لهذه الظروف.

لم تعترض أمي، ففي الوقت الحالي الأكثر أهمية بالنسبة لها هوالوصول سالمتين إلى البيت، ودعت أمي خالتي «مليحة» وطبعا تساقطت الدموع من عيونهما، ووصتها أمي أن تحافظ على نفسها خاصة مع الأوضاع التي بدأت تستعر بالبلاد.

ركبنا السيارة، لم يكن هناك ركاب أخرون ومن ثم توجه السائق إلى مجمع الحافلات وأنتظر هناك حتى يحمل المزيد من الركاب، انتظرنا مدة ساعة كاملة

حتى أصابنا الملل، قلت لأمي:

– أمي، ألم يأخذ اجرة ايصالنا بشكل خاص إلى رام الله من خالتي، فلماذا يقف هنا ينتظر ركابا، ما هذا التصرف الذي ينم عن طمع؟

ردت علي أمي:

– رزقه يا بنتي، دعيه.

– لقد تأخرنا يا أمي، لقد مضت ساعة أخرى.

– لننتظر قليلا لم يبق سوى راكب واحد فقط

قد يحتاج هذا الراكب إلى ساعة اضافية حتي يأتي سأنادي على السائق.

أمسكت بي أمي:

– لا تفعلي، قلت لك اصمتي، هل ستتجادلين مع السائقين؟ تجاهلي الأمر.

تنهدت وقلت في نفسي وهكذا تضيع الحقوق لا يمكن الجدال مع السائقين ربما ترى أمي انه لا فائدة من ذلك وما هي إلا دقائق حتى جاء الراكب الأخير وودت أن اطلق زغرودة لكني امتنعت، تنهد كل من في السيارة، فنظر الراكب الأخير إلى وجوهنا ثم امتلأ فخرا لقد شعر بأهميته الكبيرة وكأنه فرج من الله لهولاء المنتظرين.

انطلقت السيارة من مجمع الخليل نحو رام الله وسارت الطريق على نحو جيد لم يكن هناك ما يعكر صفو سفرنا الا أن وصلنا إلى نهاية طريق يسمى بوادي النار كما قال أحد الركاب وهناك كان أمامنا صف طويل من السيارات.

احتجنا إلى ما يقارب الساعة والثلث حتى نجتاز طريقا لا تتعدى المئة متر، كدت أن أفقد صبري فأنا أعاني غثيان الطريق ثم الإنتظار داخل السيارة كان

كافيا لاثارة حفيظتي وزيادة تعبي، وودت لو بإمكاني مغادرة السيارة كما فعل بعض الركاب الذين غادروها واصطفوا جانبا لحين تحركها لقد كانت تتحرك ببطء شديد، لكن أمي منعتني من ذلك وقالت لي:

– كيف ستقفين بجانب هولاء الشبان، الزمي الجلوس والصمت داخل السيارة.

ولما وصلنا إلى مكان تواجد الجنود لم أر سوى ثلاثة جنود، حمل كل واحد منهم رشاشا، وودت لحظتها أن أبكي وقلت في نفسي «ثلاثة جنود فقط يربطون ويسرقون من وقتنا وعمرنا كل تلك الدقائق والساعات، التفت إلى أمي التي كانت نائمة، أيقظتها وقلت:

– أمي، حضري الهوية يريد الجنود رؤيتها.

انتفضت أمي قائلة:

– ليست معي، لقد نسيت إحضارها ولم أحضرها من البداية عندما توجهنا إلى خالتك.

– سامحك الله يا أمي، هل سمعت عن فلسطيني واحد يتحرك دون هوية؟ما العمل الآن؟.

– سأقرا في نفسي الاية «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ».

طلب الجنود من السائق إحضار الهويات، وقاموا بالاطلاع عليها ولحسن الحظ لم يلتفتوا إلى هوية أمي، ربما لاحظوا إنها عجوز وبالتالي لم يجدوا ضرورة للسؤال عن هويتها أو ربما تكون دعوة أمي قد استيجبت، المهم أن السيارة تحركت وبدأ الحديث والنقاش والتململ والشكوى من المكوث الطويل لرؤية الهوية فقط وأحيانا اعتقال شاب من هنا أو هناك، أردت أن أشارك أيضا

بالحديث وهممت أن أعلق على الموضوع وما كدت أن أفتح فمي حتى مدت يدها أمي ولكزتني في جنبي، نظرت إليها فزمتِ شفتيها وقالت بهمس:

– اسكتي، لا شأن لنا بهم.

فآثرت الصمت، وهكذا بقينا حتى وصلنا إلى مشارف رام الله، وهناك قابلنا حاجزاً يسمى «قلنديا»، نظرت من النافذة وإذ بالسيارات تتداخل بطريقة غير منتظمة وبعضهم يلف أدراجه ويعود، تساءل الركاب: ما الخطب؟، أطفأ السائق السيارة وقفز خارجا ليستطلع الخبر، وعاد بعد دقائق قائلا: الحاجز مغلق ولا يسمح لأحد بالمرور ويجب أن نعود أدراجنا.

صرخ الركاب: ما الذي تقوله؟لابد من طريق أخر.

نظر السائق من نافذته المجاورة لمقعده ثم صاح بسائق حافلة كان يهم بالرجوع

– هل هناك طريق مفتوحة للدخول إلى رام الله منها؟.

– نعم، سوف أتوجه من طريق عين سينا، أتعرفها؟.

– نعم أعرفها.

نظر السائق من خلال المرآة المعلقة فوق رأسه إلينا، ثم قال

– سوف نعود إلى الخلف وندخل من طريق أخرى وهذا يعني ان المسافة سوف تزداد وكما تعرفون أن السيارة لا تسير على ماء، ولن أكلفكم الكثير سوف أخذ ضعف الاجرة فقط.

شهق الركاب:

– «يا ويلك»، هي لا تبعد كثيراً من هنا، فلماذا تريد ضعف الأجرة؟.

رد السائق:

– الذي لا يعجبه بإمكانه النزول هنا.

طبعا رضخنا للأمر الواقع خاصة أنا وأمي، فنحن لا نعرف في هذه الأرض شيئا أو نهتدي سبيلا، فكل ما نعرفه هو الوصول إلى مجمع السيارات لنركب حافلة أخرى إلى مدينة نابلس.

انطلق السائق عائدا باتجاه الشمال وبعد ساعة من اللف والدوران، والدخول من شوارع ترابية، وصلنا إلى رام الله من جهة «مخيم الجلزون»، عندما قاربنا على الوصول من مجمع الحافلات سأل أحد الركاب السائق عن الساعة فأخبره انها الواحدة والنصف ظهرا، كنا قد أمضينا وقتا طويلا، ولم نصل إلى قلب مدينة رام الله بعد وبدا على أمي الإرهاق والتعب.

عندما وصلنا إلى حيث يجب أن نستقل حافلة متجهة إلى مدينة نابلس، وجدنا صفا طويلا من الاشخاص الذين ينتظرون الحافلات الكبيرة للصعود ولم يكن هناك واحدة، قلت لأمي:

- يجب أن ننتظر هنا حتى تاتي الحافلة.

انتظرنا ما يقارب الربع ساعة، عندها أطلت الحافلة وما إن اتخذت مكانها، ووقفت حتى غاب الطابور، وتهافت الشبان على صعود الحافلة، وبقيت أنا وأمي نحاول الوصول ولم نفلح في ذلك، اقترب منا شيخ وقور وقال لي:

- «يا بنتي»، اليوم لا يوجد الكثير من الحافلات، فالحافلة الواحدة تحتاج إلى ساعتين حتى ترجع، فلماذا لا تركبين المركبات العمومية الصغيرة.

- لا أعرف يا عم أين يقفن، فأنا غريبة عن هذه المنطقة.

دلنا الرجل على المكان فتوجهنا إليه واهتدينا إلى مركبة، هذه المرة لم ننتظر كثيرا و انطلقت بنا المركبة بإتجاه قرى «سردا» و«أم قش» و«بيرزيت»، إنها بالنسبة الي مناطق جديدة لم يسبق لي أن رأيتها سابقا، كانت الطريق إلتفافية عن الطريق الاصلية وأخذت وقتا أطول ألا أن عقباتها أقل.

بعد مضي ساعة وربع وصلنا إلى منطقة تسمى زعترة منطقة تفصل طرق رام الله واريحا ونابلس وسلفيت وأيضا الطريق المؤدي إلى طولكرم وقلقيلية، وقفنا ولم نتحرك كان هناك صف طويل من الحافلات أمامنا، فأفاد السائق أن هناك حاجزا ولكنه ليس ثابتا.

عندما اقتربنا من مكان الجنود طلب الجندي أن نقف جانبا، ثم وجه أمراً إلى السائق بجمع الهويات

عدَ الجندي الهويات والركاب ثم قال للسائق باللغة العبرية:

– هناك هوية ناقصة.

التفت السائق خلفه وقال:

– من لم يعطني هويته.

امتقع لون وجه أمي ثم قالت للسائق:

– انا يا بني، لقد نسيتها في البيت وهي ليست معي الآن.

– الله يسامحك يا حجة، لماذا لم تقولي سابقا؟.

تحدث السائق مع الجندي باللغة العبرية وأشار إلى أمي، لم نفهم عن ماذا كانا يتحدثان، لكن يبدو أن الجندي لا يريد أن يسمع أو يفهم، فهو لا ينفك يهز رأسه بإشارة النفي، قالت أمي للسائق:

– قل له، أني حجة كبيرة في السن وما حاجتي إلى الهوية؟

– قلت له يا حجة، وهو يصر على أن تحضري هويتك، ألا يوجد أحد ما يمكنه إحضار الهوية لك.

– يوجد، يا بني، فولدي سعد في الجامعة ويمكنه إحضارها لي.

قلت لأمي:

– ماذا فعلت كيف سيحضرها سعد؟، كيف سنخبره بمكاننا؟.

– ماذا سنفعل؟

المشكلة أنه لم تكن أي منا تملك هاتفا خلويا للاتصال بسعد لإحضار الهوية، لكن أحد الشبان المتواجدين في السيارة تبرع لنا بواحد، فضربت أمي رقم أخي الذي تحفظه غيبا، وطلبت منه إحضار الهوية، أخبرها أنه ما زال في الجامعة، وأنه سيحتاج إلى وقت حتى يصل البيت لإحضارها، ومن ثم سيستقل سيارة متجهة إلى رام الله ويأتي بها، وطلب منها أن تطمئن ولا تخاف.

بعد مضي ربع ساعة من الانتظارعلى جانب الطريق قال السائق: أنه لا يستطيع الانتظار أكثر لحين إحضار أخي سعد للهوية ويزيد الأمر سهوله عليه، هو تبرم الراكبين، وفعلا ما شأنهم بهذا التأخير، فما كان من السائق الا أن أخرج محفظته وأعاد الينا نصف السعر ثم طلب منا النزول من السيارة العمومية قائلا: أن هناك الكثير من السيارات التي سوف تمر ويمكنها حملنا قالت له أمي:

– حرام عليك، أتتركنا هنا؟ نحن غريبتان عن المكان.

– سامحيني يا حجة، فلدي موعد مرتبط به، ولا أستطيع الانتظار أكثر.

لم يكن هناك بد من النزول، وضعنا متاعنا على جانب الطريق، كانت أمي متعبة ولا تستطيع الوقوف، فجلست على صخرة قريبة من الطريق وبدأت بالدعاء على من كان السبب.

ما إن مضت نصف ساعة، حتى ركب الجنود جيبهم العسكري وأنطلقوا، وجدنا أنا وأمي أنفسنا وحدنا، فقالت أمي:

– اين ذهب هؤلاء، إذا كانوا غير مهتمين للهوية، فلماذا هذا التعذيب وقطع الطريق؟

خفت عليها أن تبدأ باللطم والولولة، لقد وقعنا في حيرة من أمرنا، لا نملك هاتفا لإخبار سعد أن لا يأتي، وفي ذات الوقت نخاف من بقائنا هنا على قارعة الطريق ننتظر، والله أعلم كم سننتظر؟.

مكثنا ساعة على قارعة الطريق، وكانت الكثير من الحافلات العامة والخاصة تقف قبالتنا، بعض سائقيها عرض علينا المساعدة، وقفت قلوبنا رعبا، عندما كانت تقترب مركبات تحمل لوحة أرقام صفراء[3]، وقارب الوقت على المغيب، ولم يظهر سعد بعد.

كان لأبد من التصرف، فأوقفت أول سيارة خاصة تمر من جوارنا، أجبرت أمي على الصعود، وطلبت من السائق اعارتنا هاتفه المحمول، لنجري اتصالا لأخي سعد، طلبت رقمه، فقال: أنه كان محجوزاً على حاجز داخل بلدة حوارة، وأن جنود الاحتلال حاصروا خمسة عشر شابا، ومنعوهم من مغادرة المكان، والآن فقط أطلق سراحه.

أخبرته أن لا يأتي، وأن ينتظرنا في البلدة فنحن في طريقنا إليه، أرجعت الهاتف إلى السائق، وشكرته على حسن أخلاقه وطلبنا منه أن يقل سعداً عندما نمر به، وهكذا كان.

وصلنا إلى البيت في الساعة العاشرة مساءً، وألقينا أنفسنا على أقرب كرسي، أمي مدت أرجلها إلى الأمام ومن ثم بدأت الأنين من تعب الطريق وألم أرجلها، وكذلك سعد بدا عليه الارهاق والتعب ولكن لم يمنعه ذلك من التوجه مباشرة الى المطبخ ليقلب الاواني به بحثا عن طعام ما، وقد اغلقت أذني عندما بدأ بالصراخ على سلمى لعدم تحضيرها الاكل، أما أنا فلم أستطع الكلام و بصعوبة نطقت:

– لن أذهب إلى الخليل مرة أخرى.

ثم نمت على الأريكة مدة ساعتين، في الساعة الثانية عشر ليلا، أيقظت سلمى

3. المركبات ذات الوحة الصفراء تخص المستوطنين او فلسطيني الداخل.

وأخبرتها عن تفاصيل الرحلة، طبعا كانت شبه نائمة وكلما لاحظت انطباق عينيها، هززتها لتستفيق وقلت:

– سلمى، استيقظي، فالوقت ليس مناسبا للنوم

– دعيني أنام، ارجوك، فلدي جامعة غدا.

– لا، لن تنامي، فلدي الكثير لأقوله.

الفصل التاسع

هناك شيء ما يشغل بال عائشة، فهي تبدو على غير طبيعتها، منذ أن خُطبت إلى سمير، وهي تبدو شاردة الذهن وسريعة الغضب، أمي تعتقد أن السبب خطبتي قبلها، وهي الكبيرة، وهذا يعني أنها أصبحت عانسا فبالعادة الأهل في القرى لا يجوزون الصغيرة قبل الكبيرة، وإن فعلوا ذلك تقل فرصة الكبيرة في الحصول على زوج مناسب، لكن أبي كسر تلك القاعدة، لأن عائشة أخبرت أبي أكثر من مرة أنها لا تهتم إن فعل، ووافق على خطبتي قبلها، والشيء الأخر، أني في السنة الأولى في الجامعة، وأبي يريد أن يطمئن علي، فهو يخاف من الكلام الذي يسمعه عن طالبات الجامعات وتصرفاتهن، لذلك يريد أن لا يترك فرصة لأحد ما أن يستغل براءتي على حد تعبيره. لا أدري ما الذي يجعله يفكر بهذه الطريقة بينما أعتقد أنا أنه يبالغ في الأمر، فأنا في النهاية تربيته ولن أسمح لأحد باستغلالي.

صباح اليوم قمت مبكرة، وفكرت أن أحضّر الفطور للعائلة، استيقظت عائشة متأخرة وتوجهت إلى المطبخ، في العادة هي من تحضر الفطور، تفأجات بالنور، فبدأت بفرك عينيها واستغربت لوقوفي صباحا في المطبخ وقالت:

– كان لأبد من خطبتك منذ زمن حتى تفكري بالمطبخ.

تحسست من جملتها، بدا لي أنها تعتقد أن كل تصرفاتي فقط تندرج نحو التعلم، لأعمل في بيتي لاحقا، وأني لا أقدم مساعدة حقيقية للعائلة، واعتقدت من كلامها أنها تصفني بالأنانية والمتغطرسة، ربما أختلق لنفسي معاني وأحمل كلامها أكثر مما يحتمل، لشعوري بغيرتها مني، أم أني حقا مغرورة، أعتقد في نفسي أني أجمل منها وأوفرحظا منها، لذلك حتى لا أثير مشاعرها الدفينة، كنت أتجنب الحديث عن خطيبي أمامها، وكنت أحدث أمي، وأسكت عندما تدخل عائشة، ورغم حاجتي إلى أن أخبر أختي عن مشاعري وأحلامي، إلا أني لم اشأ أن اقحم عائشة في ذلك، وكم هو صعب في تلك الفترة أن تكتم الفتاة سرا، لذلك كنت أخبر صديقتي الجديدة منى كثيراً من الأمور والكلمات التي أسمعها، ومنى صديقة ألتقيتها في الجامعة، هي ليست من قريتنا بل هي من المدينة المجاورة، وكم تعجبني لكنتها المدنية في الحديث واستبدالها حرف الالف بحرف القاف، كنا في محاضرة، وكان المحاضر أو كما يسمونه في الجامعة «الدكتور» عصبيا جدا، فطرح سؤالا عن بعض أسماء القرى المهدمة وأختار منى للإجابة، فما كان عليها إلا أن تجيب، فقالت: «أرية ديرياسين»، هنا أوقفها المحاضر واستشاط غضبا، ثم قال لها: إنها «قرية» بالقاف، وأن هناك حرفا باللغة العربية اسمه حرف القاف ثم طلب منها أن تأتي إلى السبورة وتكتب حرف القاف عليها، ورغم أن الموقف كان مضحكا في حد ذاته إلا أن أحدا منا لم يجرؤ على الضحك.

بعد المحاضرة تقدمت منها، وأخبرتها أن لا تهتم بما فعل «الدكتور»، فما كان

منها إلا أن قالت: «أفكر في سحب المادة، لقد أحرجني كثيرا» ، سرنا سويا إلى أن وصلنا المكتبة، في ذلك الوقت أقنعتها أن المشكلة ليست كبيرة كما تعتقد وأن الكل سينسى، وإن كان هناك انتقاد لأحد ما فسيكون لتصرفه هو وليس لها.

ثم شاءت الصدف أن ألتقيت بها لاحقا في أكثر من مادة، وهكذا أصبحنا صديقتين، بدت منى مختلفة عني تماما، فهي أكثر تحررا وانطلاقاً، شعرها أسود مقصوص بشكل دائري حول عنقها، وهي قصيرة القامة قليلا ونحيفة وتميل إلى لبس بنطال «الجينز» وكنزة قطنية بيضاء أغلب الايام.

اعترضت أمي وعائشة وأخوتي كثيرا على صداقتي بمنى، بدت منى غريبة في تصرفاتها، فهي على حد وصفهم فتاة متحررة، وأحيانا لا تقيم للآداب العامة اعتبارات كبيرة، ولا يقصدون الآداب العامة بمعناها الحرفي، بل يقصدون التحدث بطلاقة دون أن يحمر وجهها خجلا، أو المبادرة بالسلام على أخوتي الذكور أبدت أمي أكثر من مرة أنها لا ترتاح إليها فعندما تأتي إلى منزلنا، وتجد سعداً خارجاً من البيت فإنها تبادر بالسلام عليه، وتسأله عن حاله، وهي تخاف على أخي سعد أن يقع ضحية، فقد يتبادر إلى ذهنه أنها معجبة به أو شيئ من هذا القبيل، بينما هي تحاول أن تكون مهذبة أو من العائلة وليس أكثر، فينكسر قلبه، كنت أغرق في ضحك هستيري، عندما تقول أمي ذلك إلا أني أحيانا ما أوافقها الرأي، فالغرور الذي يسكن سعد يجعله يعتقد أن كل فتاة لا بد أن تغرق في غرامه عندما تراه.

لذلك أخبرت منى أن لا داعي لتزورني في البيت، وأوجدت أعذارا كثيرة لذلك، على كل حال لم أدرِ لماذا كانت منى تحب أن تأتي للدراسة ببيتي، كانت تخبرني أنها لا تفهم المواد إلا إذا درستها معي.

ربما ذلك صحيح، لا أعلم مدى صدق ذلك الرأي، وأحيانا كان يلعب الشيطان لعبته في عقلي، فيصور لي أن قلق أمي في محله، ثم أتذكر سعدا، حقا هو أكبر

أخوتي، وكل أخوتي ذوو منظر لائق، لكن سعداً أقلهم وسامة، إلا أنه أكثرهم ثقة بنفسه، كان يهتم بمظهره كثيرا، ولا يخرج من البيت إلا بحلاقة ذقنه يوميا، وترتيب شعره ووضع مثبت الشعر على رأسه، وملابسه مكوية «على الحد» كما يقولون، ضحك سمير كثيرا عندما أخبرته بتلك التفاصيل عن عائلتي فرد علي:

– حقا إن سعداً غريب التصرفات، لكن قلبه طيب جدا، وأتوقع أنه لا بد أن تسعوا إلى تزويجه.

قلت له:

– ربما تجد له عروسة، فأنت أصبحت من العائلة الآن.

كنت أجلس أنا وسمير في غرفة الجلوس في بيتنا، وكان يمنحنا أبي ساعة واحدة فقط للجلوس سويا وحدنا، حتى أتعرف إليه وآلفه، ورغم أنه كان في ذات الجامعة التي أدرس فيها، وكان في السنة الرابعة، بينما كنت في السنة الأولى، إلا أنه لم يفكر ولم يحدث منه أبدا أن قابلني في الجامعة، أو تحدث معي ربما لأنه لم يرد أن يعتقد أبي أنه غيرمحل ثقة وأنه يخون الأمانة والوعد ألا يقابلني أبدا خارج أسوار بيتنا، لكن أنا فسرت ذلك أنه قلة اهتمام بي، وشككت حتى بمشاعره تجاهي.

مضى على خطبتنا عامان، وتخرج سمير من الجامعة قبل سنة، فأتم دراسة الهندسة الكهربائية وتدرب ستة أشهر في في إحدى الشركات، إلا أنه الآن لا يعمل، وهذا وضع العقبات أمام اتمام مراسم الزواج، أمي تصر على أن يكون الأمر كما تتخيله هي، عرس كبير، وذهب بقيمة كذا وكذا فأنا لست أقل شأنا من ابنة عمي زينب التي أحضر لها عريسها ذهبا بقيمة كبيرة، ولست أقل من ابنة خالي صمود التي غيرت ثلاثة أثواب فاخرة في حفلة الحناء[4]، وكل ذلك على نفقة العريس.

4. حفلة الحناء: هي حفلة تسبق حفلة الزفاف ويتم فيها وضع نبات الحناء المجبول بالماء على يد العروس وكذلك العريس.

لم تكن تعنيني كل هذه الأمور، كان يصيبني قلق غير مفهوم ومفسر، أن العمر سيذهب، ولن أزف زوجة إليه، كأنما أستحضر اغنية أم كلثوم «ابتديت دلوقتي أخاف للعمر يجري»، استمر نفس الروتين مدة عامين سمح أبي لي أحيانا أن أخرج معه برفقة أخي الصغير أسامة في جولة في السوق، أو الذهاب لمساعدة حميَ في موسم قطف الزيتون فقد امتلكوا أرضا متوسطة الحجم تضم ثلاثين شجرة زيتون، كانوا يسمونه الزيتون الرومي أي أن هذا الزيتون ترجع أصوله إلى أيام حكم الرومان لأرض فلسطين.

كانت هناك أشياء تشغل بال سمير أكثر من مراسم زفافنا، فالوضع السياسي والاقتصادي للبلد كان صعبا، فقد بدأت قبل عامين الأنتفاضة الثانية للشعب الفلسطيني، وبدت الأمور مزعجة ومقيته، كان التحرك من قرية إلى قرية، أشبه بصراع يومي، وكان ذهابي إلى الجامعة معاناة حقيقية، حيث وضعت الحواجز العسكرية والمعابر أمام كل مدينة، بحيث أغلقت تلك الحواجز الطرق، ولم تسمح بخروج السكان أو الدخول إليها إلا عبر ممرات ضيقة وتفتيش مقيت، وأمام كل قرية وضعت مكعبات اسمنتية تسد الطرق لقد كانوا أشبه بقاطعي طرق، لذلك لم أكن أحضر معظم محاضرات الساعة الثامنة، ورغم أن بلدتنا لا تبعد عن مدينة نابلس سوى ثلث ساعة، إلا أن الطريق كانت تأخذ مني أحيانا ما يقارب الساعتين، وأحيانا أخرى لم أصل بتاتا الى الجامعة، كانت تسد جميع الطرق فنقفل راجعين حاملين أهم ما يخسره الأنسان، وقته وحياته، فما الحياة إلا عبارة عن دقائق وساعات كما قال الحكماء، ورغم أن التدقيق على النساء لم يكن بقدر ما على الرجال - فالشباب كانوا يتعرضون لتفتيش أدق وللضرب والاهانة أمام كل بادرة عدم رضا منهم - إلا أننا عانيينا من أزمة الحاجز والازدحام، والمشاكل المتعلقة بين الواقفين على الطابور، وبكاء الأطفال المحشورين بين النساء المتدافعات، لقد فكرت مرارا وتكرارا لو تمكنت من السكن داخل المدينة لارتاح من ظروف التنقل ونقلت رغبتي تلك الى سمير عله يبحث عن مسكن مناسب لنا هناك ولكن مشاكله المادية صعبة فهو لم يحصل على عمل بعد، وما زال عليه بعض القروض

الجامعية، و أيضا هو متعب، ليس من قلة الوظيفة بل من القضية، لقد أخبرني يوما أنه نشأ وكبر وهو يسمع الأخبار كل ساعة، عسى أن يسمع يوما ما خبرا سارا، عسى يوما أن يسمع أن البلاد عادت وأن الظلم رفع، كان يخبرني أحيانا كيف له أن يعيش ويأكل، بينما القدس تبكي كل يوم، لذلك ابتعد، وبدأ أحيانا يتخلف عن موعد حضوره إلى منزلنا كل خميس، بدا أن هناك ما يشغله ويبعده عني.

في منتصف السنة الثانية لخطبتنا أصبحت أضيق ذرعا بغيابه وإهماله، وتعب الطريق والدراسة زادت من توتري وقلقي، فشعرت أن الغضب يملأ كل ذرة من جسمي وبدأت أشعر أن مشاعره تغيرت وأن هناك ما يشغل باله، لكن كثيرا ما كأن يعلل ذلك بضيقه من عدم حصوله على عمل بعد، فقلت له ذات مرة:

– إنك حتى لا تحاول البحث عن عمل، لا أراك ترسل سيرتك الذاتيه لأحد.

رد علي أن الحل الوحيد للحصول على عمل، هو السفر إلى الخارج، فهنا لا يوجد الكثير من فرص العمل أو المصانع التي تحتاج تخصصه.

– ألهذا شجعتني على دراسة الرياضيات، وطلبت أن أغير تخصصي من الهندسة.

– أما زلت نادمة على ذلك؟

– لا، ولكن الآن تلمح للسفر إلى الخارج، وهذا يعني أنك قد تطيل الغياب.

– لم أقل أني أريد السفر، إنما قلت أن الفرص في الخارج أكثر مما هي متاحة هنا.

– وماذا علي أن أفهم من هذا الكلام.

ثم نظر الي نظرة طويلة وقال «سلمى، هل إذا مت أو غبت عنك، هل سأبقى في ذاكرتك؟ »

نظرت إليه بدوري وقلت:

– لا أستطيع حتى أن أتخيل ذلك.

الآن مضى ثلاثة أشهر على أخر مرة رايته فيها، وأخر مرة سمعته فيها منذ أن بدأت قوات الاحتلال تبحث عنه، لقد اعتقلوا أخوتي وأبي وحتى أنا وحققوا معنا جميعا، ولكن لم يكن عندنا أدنى خبر عما كان يفعله أو عن مكانه، رغبت أن يسلم نفسه فعلى الاقل ساعرف أين هو، سأراه، سأطمئن عليه، سأتابع اخباره، لكن في هذا الوضع الحالي فهو بالنسبة إلي مفقود، لقد اختفى، لم أسمع عنه شيئا منذ وقت طويل، سوى تلك الرسالة الحمقاء التي أرسلها إلي والتي مزقتها إربا إربا، ماذا يخالني إمراة من ورق، تسعى الى راحتها فقط، ورباط الزواج الذي ربطنا، ألا يعني أن أقف بجانبه على الدوام وعلى كل حال.

كان خبر استشهاده لا يصدق، بعد هذا الوقت الطويل من الشوق والضياع بين الاوهام والهواجس عن ماذا حل به؟وماذا حصل له؟، ورغم عظمة الكلمة الا انها تمثل حقيقة لا يمكن انكارها، فلن أراه مجددا وأبدا.

والآن تأكد لي أني لن أراه، فغدا هو يوم دفنه وتشييع جثمانه، غدا أخر نظرة وداع، ماذا أفعل، إلى أين أهرب من الوجع، الذي أشعر به يمزق قلبي؟كيف سأطيق ذلك.

غرقت في أحزاني وأواجاعي، ورغبت في الموت فأحيانا يكون انتظار الموت مهمة شاقة، ورغبة قاتلة، لماذا نعتقد أن الأحلام تتعلق بالسعادة، ولماذا لا يكون الموت ضمن تلك الأحلام، لماذا يعاتبنا الكثير إذا قلنا أننا نتمنى أن نموت، تلك الأمنية تراودني، ولا أطيق صبرا لتحققها، لقد تعبت من كل شي حولي، من الناس والنفاق، من الضعف والاستسلام.

يمكنني أن أنهي حياتي فهي ليست بالمهمة الصعبة، وهناك عشرات الطرق لعمل ذلك قد أتناول حبات دواء، قد أرمي نفسي أمام سيارة، قد أقفز من سطح البيت، أو أعمل عملا بطوليا وحتما سأستشهد، الموت يحيط بنا في كل لحظة، شردقة طعام قد تقتل، زلة قدم عن صخرة قد تقتل، جرح سكين عميق

في شريان قد يقتل، فلماذا نحاول الهروب منه؟هل يكمن السبب في خوفنا من الحياة بعد الموت؟هل لأنها غيبية وغير واضحة.

طبعا لن اتخذ هذا القرار وأنهي حياتي، لأنني ببساطة لا أستطيع أن أخالف أمر الله في «عدم قتل النفس».

لكن هل هناك أمل، هل بالإمكان أن أعيش بقلب مجروح وفراق قاتل، كيف سأمنع نفسي أن لا تشتاق لرؤية سمير، كيف؟

لقد مضى شهران الآن على يوم دفن سمير، وعذابي يزيد ولا ينقص، وحتى دراستي لم أعد اتحملها أصبحت أحمل لقب أرملة حتى قبل لقب متزوجة.

جلست بجانبي أختي عائشة، أمسكت بيدي، ومسحت على شعري وقالت:

– سلمى، ستتجاوزين الأمر ستنسينه، وقد يخفق قلبك من جديد فأنت جميلة، وستحصلين على فرص كثيرة.

– وما المقصود بالفرص؟ ماذا تعني الفرص؟ لا أفهم.

– ماذا يمكنك أن تفعلي هذا قدرك، ويجب أن تصبري وتكوني من الصابرات، يجب أن تحمدي ربك، أنك لم تفارقي بيت أبيك بعد وليس لديك أولاد.

تساقطت من عيوني دمعتان جرحتا خدي من حرقتهما، ثم انتفض قلبي عندما فتح باب غرفتي فجأة، وطل منه أبي، كانت ملامحه ثابتة وقاسية، وقال بلهجة آمرة:

– سلمى، كفي عن النحيب، لا أريد أن أسمع عن سمير شيئا بعد اليوم، وإياك ثم إياك أن تذكري اسمه، لقد استشهد وانتهى الأمر.

أغلق الباب وراءه، ثم أعاد فتحه بعد دقيقة، نظر إلي ثم قال:

– أريدك اليوم أن تجهزي نفسك، فلدينا زائر.

أعاد غلق الباب وراءه، فنظرت إلى عائشة جزعة، ثم صرخت:

– عائشة ما معنى هذا الكلام؟ لا أفهم، بالله عليك قولي لي هل هناك شي؟ لماذا يجب أن اتجهز لزائر؟ما الحكاية؟

ردَت علي عائشة متلعثمة:

– لا أدري، ليس لدي أدنى فكرة.

– يبدو أنك تعرفين شيئا، أخبريني أرجوك.

– لا علم لدي، قلت لك أنك جميلة وفرصك كثيرة.

الآن بعد ثلاث سنوات مضت، ما رأيك يا عائشة بالفرص؟ هل كان الجمال هو الأهم، أريت كيف أن قدرك كان أحسن مني، لقد تزوجت رجلا عاقلا وذكيا وحنونا، بينما غرقت أنا في حزن عميق، في حياة كئيبة مع رجلٍ كرهته حتى العمق، كرهته حتى النخاع، كنت أكره كل شي فيه، عينيه وشعره ونظرته وتصرفه، وطريقة كلامه، وأكله، ويصعب علي أن أصف هذا الشعور البغيض، بل كثيراً ما يصيبني الغثيان، عندما أتذكر أسنانه الصفراء، ورجولته المزيفة التي لا يظهرها سوى علي فيستشيط غضبا على أتفه الأسباب، هل كان السبب أنه يلحظ نظرة الكره له في عيني؟.

لقد تزوجني غدرا ونفاقا، حتى أني كرهت والدي الذي وثق بعزيز أكثر مما وثق بي، وصدَق عزيز أكثر مما صدق نفسه إذ رباني، وأحسست بالغضب من أمي، التي وقفت تشاهدني أزف إلى عزيز وهي تعلم كم كنت أبغضه، لقد سمعت نحيبي طوال ليال، ولم تشفق ولم يتحرك قلبها، وكرهت عزيزة التي جعلتني ألتقي بعزيز، كرهت كل الناس من حولي إلا ابني فريد فرغم أنه مرتبط بعزيز ويحمل اسمه إلا أنه مختلف.

سنتان مضت وأنا أحاول أن أتأقلم أن أتقبل عزيزا، قد لا أحبه لكن على الاقل حاولت أن لا أبغضه، لكن لا شي يحقق لي ذلك لا دعواتي ولا أفكاري أن أتقبل الواقع وأرضى «بنصيبي» وقدري على رأي أمي، ولا هو يساعد، إن تصرفاته مزعجة ومعاملته جافة، اشعر بداخلي أنه يغار من سمير، ألا يفهم أن سميراً قد مات.

كنت في البداية أخشاه عندما يقف بجوار الباب ويزم شفتيه ويطيل النظر إلي، وكنت أخشى ثورات غضبه اللامتناهية، ولكن الآن لم أعد كذلك أصبحت أثبت في وجهه، وأبادله ذات النظرات الحازمة والثابتة ند لند، ربما كان الفرق بيني وبينه هو الوجه الذي يراه كل منا، فأنا كنت أجبر نفسي على النظر إليه.

غضبه وغيرته حولتا حياته وحياتي إلى جحيم، صرخ ذات يوم قائلا:

– لا أدري، ما الذي كان يعجبك فيه؟

لم ألتفت إليه ولم أردَ على سؤاله، واستمررت في تقطيع شرائح البطاطا، فأردف:

– لماذا لا تردين علي؟ لست بأهمية لك حتى تردي.

– ماذا تريدني أن أرد، ماذا يجب أن أقول، كل شيء كان فيه يعجبني.

– عكسي أنا

لففت نفسي باتجاهه ونظرت إليه وقلت في نفسي إذا كان جوابي يعذبك، فليكن لتتعذب قليلا، فرفعت نظري إليه وركزته على وجهه ثم قلت:

– نعم، عكسك أنت فلا شيء فيك يعجبني.

شعرت بالغضب يرتفع إلى عينيه، وامتقع لون وجهه، اختطف السكين من يدي ووضعه على عنقي بعدما أدارني بإتجاه صدره، فأصبح ظهري إليه، بدأ

يغرز السكين في عنقي، كمن يريد أن يقتلني، نظرت إلى ابني فريد الذي كان يلعب بالعابه على مقربة مني، إنه يبلغ الآن عاماً واحداً، هو ما يجعلني أمسك بالحياة ولكن في تلك اللحظة فقدت الرغبة في كل شيء، ولم أعدَ أريد شيئا، فقلت بعزم وعدم اكتراث:

– أرجوك اقتلني على الاقل لن أراك ثانية.

أطلقني من يديه بقوة ورماني أرضا، ثم صرخ غاضبا، وألقى سيل كلماته التي تدل على «حسن تربيته»، وتوجه إلى باب البيت فتحه وخرج منه ثم أغلقه بكل قوة.

انتفضت لصوت الباب وبكى فريد من الصوت، ذهبت إليه احتضنته وضحكت، ضحكت طويلا وبهستيرية حتى إمتلأت عيناي بالدموع، إني أجعل حياته تعيسة، كما جعل حياتي من قبل.

كيف كان يتوقع مني أن أتقبله أو أحبه بعدما تباهى بفخر أنه هو من قتل سمير، ولا يعنيني سمير الآن قدر ما يعنني أنه خائن لوطنه، كيف يريدني أن أنسى وأن أتقبل وأعطيه حياة هادئة وهانئة بعدما طعن في أخلاقي وأخلاق سمير ووسوس كشيطان لأبي أن سميراً خان الأمانة والثقة التي منحها إياه، وانه هو المنقذ الذي سينقذ شرف العائلة وسمعة الأسرة، كان على يقين أن أبي لم يكن يرضاه زوجا لي، لذلك دبر خطته الدنيئة، الكاذب، والمشكلة ليست هنا، المشكلة كيف عمى أبي عن الحقيقة؟ وكيف صدق عزيزا؟، أشتاق لأمي لكن لا أزورها وأشتاق لأبي لكني لا أتحدث معه.

عائشة تزورني هنا، تحتضنني بصمت، أبكي على كتفها ثم أجد نفسي أبثها همومي

– عائشة

- نعم يا أختي الجميلة

- لو لم أكن جميلة هل كان مصيري مختلف، ربما لم يكن ليطمع فيَ هذا الزوج

- كل ما يعطينا الله إياه، هو نعم من عنده، الله يفرج الهم يا سلمى، لا تقنطي من رحمة الله.

- نعم، الله يفرج الهم، سأعد لك القهوة، أبقي رجاء.

- أخاف أن يأتي زوجك يا سلمى، ثم أن حسن قد يأتي لاحقا

- كيف حاله؟، هل يريد العودة إلى أمريكا قريبا؟

- نعم، هو في إجازة الآن، لكن ربما هذه أخر مرة يغادرنا.

- لماذا؟

- ربما ستكون أوراقي جاهزة في المرة القادمة سيصطحبني معه إلى أمريكا.

- أحقا ذلك، هذا رائع، أتمنى لك السعادة، فأنت تستحقين ذلك.

ذهبت إلى المطبخ وأعددت قهوة لعائشة، ناولتها فنجانا، ارتشفت منه رشفة صغيرة حتى اهتز الفنجان في يدها، لقد دخل عزيز المنزل، نظر إلى عائشة ثم قال:

- أها، البشعة عندنا، أهلا وسهلا.

طأطأت رأسها للأسفل، وارتفعت الدموع إلى عينيها ولم تستطع الرد عليه ثم أردف:

- عائشة، ماذا تفعلين عندما تنظرين إلى وجهك في المرآة هل تصابين بحالة من الرعب والخوف.

ثم بدأ يضحك ضحكة عالية مقهقهة زادت من غيضي وكرهي له فقلت له بصوت عال:

- هلا تكف عن ذلك؟ربما أنت الذي يجب أن تخاف من وجهك في المرآة فأنت لست أقل بشاعة

ثار غضبا ثم اختطف فنجان قهوة عائشة من يدها، وسكبه على وجهي قائلا:

- لا تحترمين زوجك ولا تعرفين كيف تعاملينه

- لست زوجتك

فتحت عائشة فاها استغرابا، لا أعرف هل استغربت من تصرفاته أم من جرأتي؟ أم لعدم احترامي للعادات والتقاليد بوجوب خضوع الزوجة التام.

مسحت القهوة عن وجهي الذي إحمر من لسعة حرارتها، ونظرت إلى عائشة وقلت لها:

- ليس زوجي، لم أختره.

توجه عزيز إلى فريد وحمله بين يديه وقبله، ثم مضى به إلى داخل غرفة النوم، كان يحب فريداً كثيرا، ربما رغب أن يعوض رغبة مدفونة داخله من حرمان حنان الأب.

استأذنت عائشة، وبدت متضايقة، رجوتها أن تجلس قليلا بعد، لكن تهدج صوتها أثناء الكلام ولم تستطع السيطرة على رجفان جسمها، بالنسبة إليها بدا الموقف صعبا وغير مألوف، وبالنسبة إلي كان روتينا يوميا، وبتَ معتادة على تلك المواقف.

الفصل العاشر

كنت في زيارة إلى سلمى اليوم، دون إذن مسبق من أبي وأمي، كان دافعي إلى ذلك هو قلق أمي المستمر عليها، فعندما نجلس سويا سواء في المطبخ أو على الشرفة مساءً، تحدثني أن سلمى لا تزورها، وتبكي كثيرا، كانت قد أخبرتها جارة سلمى «أم محمود» أن وزنها نقص كثيرا، لذلك قررت أن أزورها لأطمئن عليها فقد مضى شهر كامل منذ أخر مرة رأيتها فيها.

اليوم اكتشفت حجم الغضب الذي يسكن روحها، إنها غاضبة لدرجة أنها تضرب بعرض الحائط كل التقاليد، غاضبة لدرجة أنها لا تريد أن تسامح أو تغفر لكل من أساء إليها.

خرجت من بيتها باكية، لقد بكيت كثيرا أثناء العودة، لدرجة أني لم أعد أقوى

على الحركة، فجلست على حافة الطريق، تساقطت الدموع بغزارة من عيوني شفقة وحزنا على ما أصاب سلمى، لقد شعرت بالخجل من نفسي للأيام التي غرت بها منها، وشعرت بالبؤس، كيف انقلبت حياتها رأسا على عقب؟، لقد تركت دراستها، جعلها عزيز تفعل ذلك قبل سنة من تخرجها، وكل ذلك بسب غيرته الشديدة، لم يكن يريد أن يراها أحد، ليس لأنه يحبها كما كانت تقول بل لأنه يعلم أنها لا تحبه، لذلك أعتقد أن كل الناس أفضل منه.

ربما أخطأنا في إتمام ذلك الزواج، لقد فقدت كل شيء، فقدت في البداية خطيبها ثم دراستها وثقتها بأهلها، ومن ثم أرغمت على الزواج لسبب غير مفهوم لرجل كرهته حتى العمق، حتى الزفاف لم تحظ به، كان عرسها أشبه بجنازة.

أبي أثناء الزفاف بدا رأسه منخفضاً إلى الأسفل كمن لحق به عار، وأمي لا يفتر وجهها أيما ابتسامة، وسلمى عيناها جاحظتان من البكاء، وحدهم الذين كانوا سعداء هم أهل العريس وطبعا العريس.

وأنا الندم يقتلني أحيانا، لأنني منعتها من الهرب، كان ذلك بعد أسبوع من إخبارها بأنها ستتزوج عزيزا، استيقظت على حركة غريبة في الثانية عشر ليلا، سمعت صوتاً خافتاً لحقيبة تغلق وتفتح، ومشياً على رؤوس الأصابع، ففتحت عيني نصف فتحة لأرى سلمى تضع ثيابها داخل حقيبة صغيرة، لم أتحرك بل بقيت ساكنة، وأغلقت عيوني، شعرت بها تمسك الحقيبة، وتتجه إلى باب المنزل، بدأ قلبي يخفق بشدة من الخوف، تخيلت العالم الخارجي الموحش وتخيلت الذئاب الأدمية التي ستأكل سلمى، ماذا تفعل؟ هل جنت؟هل عزيز أسوأ من ظلام الشارع؟.

انتفضت من مكاني وألقيت بالغطاء جانبا، وركضت وراءها، كانت على وشك أن تفتح الباب الخارجي للمنزل، أمسكتها من يدها فالتفت إلي مذعورة، ورجتني قائلة بصوت خافت:

- عائشة، دعيني أرجوك، دعيني أذهب يجب أن أفعل ذلك

- هل جننتِ، إلى أين ستذهبين؟ توقفي عن تصرفاتك الحمقاء، ألا تدركين قبح العالم في الخارج؟

- لا تقلقي علي سأكون عند منى، سأمكث عندها أياما، أرجوك دعيني أذهب، أتوسل اليك منى ستلاقيني عند أطراف القرية، فهي تنتظرني الآن.

- أنا لا أثق بمنى، إنها فتاة طائشة وتعتقد أنها تفهم كل شيء.

- لا ترفعي صوتك ستوقظين أبي وأمي، أنت لا تفهمين لا يمكنني أن أتزوج عزيزاً، ليس لدي سوى خيارين إما الهرب أو الانتحار أيهما تفضلين؟ آه، أخبريني أيهما أفضل؟

لكن لم أكن لأسمع، في الحقيقة، لقد برز ذاك الجانب الشرير مني، لقد تملكتني مشاعر الغيرة الدفينة من سلمى، قلت في سريرتي، هل يجب أن تحظى بكل شيء الجمال والدراسة والاهتمام؟لنقل أنها لا تريد عزيزاً، ما المشكلة؟لتتعذب قليلا، ما المانع؟، هل يجب أن يكون كل شيء مثاليا ورائعا؟.

أمسكت يدها وهي تحاول اجتياز الباب ثم صرخت بأعلى صوتي:

- أبي، أمي سلمى تحاول الهرب.

حاولت سلمى أن تضع يدها على فمي لتسكتني، أشحت يدها بعيدا وتابعت الصراخ، أسرع أبي وأمي بالحضور، وجه أبي إلى سلمى صفعة قوية، شعرت بالأسى، ولكن في نفس الوقت شعرت بسعادة خفية، حاولت أن أمنع تلك المشاعر من الظهور، لكنها طفت على السطح، ها هي سلمى الجميلة لا تطيع لكما أمرا، ربما الآن لم يعودا يحبانها كما كانا يفعلان فهي تسبب المشاكل.

الآن أتساءل هل أخطأت؟هل كانت ستكون أسعد لو كنت تركتها تذهب؟

تمكنت من لملمة بعضي، وأكملت طريقي إلى أمي، سألتني بلهفة عن سلمى، عن أحوالها، وكيف بدت؟هل سمنت قليلا؟ أم أن وزنها كما هو، هل بدت بشرتها شاحبة؟ أم بدت طبيعية، هل شعرت أنها سعيدة؟ وهل تحدثت عن كونها سعيدة؟ أخبرتها أنها بخير وأنه لا داعي للقلق، ماذا كنت سأستفيد لو أخبرت أمي أنها ليست على ما يرام، وأني لم أرتح يوما لزوجها، وأنه فعلا بالسوء الذي ذكرته سلمى والذي أستشفه قلبي قبل أن ألتقيه، تنهدت أمي وقالت:

– لم أرها منذ زمن، كيف هو ابنها.

– إنه رائع، يملأ المنزل حركة وضجيجا.

– هل رأيت زوجها عزيزاً؟

– نعم، رأيته.

قلت ذلك ولم أعِ أني ضممت شفتي، لتظهر كعلامة أوحت لأمي أني غير راضية عنه، أو أنه صدر منه موقف سيء فسألتني:

– هل هناك خطب ما؟ تبدين غير مرتاحة.

– لا أبدا، ليس هناك شيء يذكر، أنا فقط أتعجب كيف تتغير الحياة، وأشعر بالأسى أن سلمى لم تحصل على ما أرادته منها، فلم تكمل تعليمها أو تتزوج من خطيبها الذي أحبته.

– هذا «نصيبها».

– نعم «نصيبها»، هل لنا يد في ذلك «النصيب»، الذي يربط المرأة إلى الأبد، هل كان لي دور أن أخطب إلى ابن خالتي حسن.

حسن الابن الاصغر لخالتي، والذي يكبرني بعام واحد فقط، المتعلم وحسن المظهر والمقيم في الولايات المتحدة الأمريكية، تبدو لي فكرة الذهاب إلى هناك

مغامرة كبيرة، إنه لشيء رائع أن أرى عالماً مختلفاً عما ألفته هنا في فلسطين، أسمع أن هناك حرية واحترام، فالناس تحترم بعضها البعض ويحترمون أراء الأخرين، هذا ما أسمعه وإلا لماذا يرفض معظم الذين يغادرون إلى الولايات المتحدة أن يعودوا إلى بلادهم؟، أمي دائما تقول لي أن كثيرا من سكان رام الله لهم فرد واحد على الاقل يسكن هناك في الولايات ولفترات طويلة، وفي ذات الوقت أخاف أن أكون هناك وحدي دون أمي وأبي وأخوتي وصاحباتي.

وحدي هناك، أمر مخيف، حتى أني لا أقوى على التفكير به، أمي دائما تطمئنني أن كل شي سيكون أفضل مما أتوقع فخالتي الآن هناك، سافرت قبل سنة، ولن تعود على الأقل لمدة أربع سنوات، حتى تحصل على الجنسية الأمريكية، وأبناء خالتي هناك، وابن عمي راجح أيضا يعيش في ذات الولاية.

لا أدري ما الذي جعل خالتي تفكر بي كزوجة لابنها حسن، ولماذا وافق حسن؟، فهو الابن الأصغر لخالتي وقد سبق له الزواج بأمريكية شقراء، فارعة الطول، وجميلة القد كما علمت، لقد رأيت صورتها في احدى زيارتنا لخالتي، و لقد أخبرتني انها أحبته كثيرا، لملامحه الشرقية وبشرته الحنطية، لكن هو أخبرني أن الجمال لم يعد يعني له شيئاً عندما يفتقد إلى الأخلاق، فمنذ البداية، كان هدفه من الزواج منها هو الحصول على الجنسية الأمريكية وليس شيئاً أخر، وحسن منذ صغره كان محافظا على الصلاة وقارئا للقرآن، فلم يكن يتقبل أن يكون بينه وبين زوجته هوة كبيرة في الدين والمفاهيم، فهي غربية الطباع، تصر على الدخول والخروج متى أرادت وكيفما أرادت، أما هو فلم يستطع أن يغير مبادئه وافكاره، وبالتالي وجد نفسه غير مرتاح مع شخص يشاركه حياته طوال العمر، وأخبرني أيضا أن ما يبحث عنه هو المودة والحسنى والاحترام المتبادل وليس الجمال، الذي سيعتاده مع الوقت كما أنه لن يدوم طوال العمر، فبعد عشر سنوات أو أكثر سيتغير الحال وسيذوب الجمال في كلا الطرفين وستبقى الروح والأخلاق، بدا كلامه منطقيا ومريحا، وشعرت برابط روحي بيننا.

بعد أن حضرت خالتي إلى منزلنا وتم عقد القران ووزعنا الحلوى، أخبرني أنه حصل على أكثر مما كان يتوقع وأنه سعيد إلى درجة لا توصف، وأن براءة روحي تعكس جمالا رائعا على محياي، أحقا ذلك؟ كانت تلك المرة الاولى التي أسمع فيها كل تلك الكلمات الجميلة، إن الناس حقا غير متشابهين، وأثناء وقفتنا هناك في باحة بيتنا الواسعة، كنت البس فستانا أحمراً من قماش الساتان المنسدل وقد عقصت شعري إلى الجنب، وقفت على قبالتي أمام البيت سلمى كانت ما تزال تفقد الوزن، في تلك اللحظة لم أر غيرها و وكأن كل ما كان حولنا اختفى، أنا وهي فقط نقف قبالة بعضنا، نظرت إلي نظرات لا روح فيها، صامته، لا أدري هل هي فرحة؟هل هي حزينة؟هل تتذكر؟ هل تقارن زواجها وزواجي؟

أو ربما كانت تودعني، اقتربت مني، قالت بصوت خفيض ومتقطع من البكاء:

– مبروك يا حبيبتي

– الله يبارك فيك سلمى، أشكرك لأنك جئت، كنت سأغضب منك لو لم تفعلي.

– لا أقدر على غضبك.

حضنتها لفترة وجيزة ثم انسلت من بين يدي، نظرت الي طويلا ومن ثم غادرت الحفل قبل نهايته، كانت أشبه بالغريبة التي تحضر لتؤدي واجب المشاركة فقط.

****

الفصل الحادي عشر

شبحه يطاردني، كيف لا يمكنني أن أتخلص منه، أراه يقف بيني وبين سلمى، سلمى تلك العنيدة الجميلة، إنها تحول حياتي إلى جحيم، تثير غضبي حتى النهاية.

ألتقطت اليوم سكينا من يدها، كدت في لحظة غضب أن أقتلها لكن عنقها الجميل وعينييها الواسعتين الساحرتين أثرا في حتى تراخت يداي، ما هذا الشعور التافه الذي يجعلني أتحمل إهانتها المتواصلة وسوء طبعها معي؟، لم يكن الحال هكذا عند أول سنة زواج، كنت أعلم أنها لا تحبني، لكني أجبرت عقلي على توهم أن ذلك سيتغير بالحياة معا وسويا.

تزوجنا بطريقة بسيطة جدا، كانت هذه رغبتي، فقد فرضت شروطي على أبيها، كذبة بسيطة مني والساذج صدق الحكاية.

عندما أخبرته خفق قلبي بشدة، اعتقدت أنه سينفجر في وجهي، وقد يمسك بتلابيب قميصي، أو يقبض على عنقي بكلتا راحتيه ويخنقني، إلا أنه لم يفعل، بل صمت طويلا ثم ترقرق الدمع في عينيه وقال جملة واحدة:

– فيك الخير يا بني.

قلت في سريرتي:

– هذا فقط، هل صدق؟ يا إلهي كم هو رجل بسيط وساذج.

خرجت من عنده وأنا أطير فرحا، ها هي أمنياتي تتحقق، أصبحت في نظره المنقذ والذي سينقذ شرف وسمعة العائلة، ثم تذكرت فتحي، كيف سيكون وقع الخبر عليه، سأحاول زيارته في سجنه وإخباره بالأخبار السارة.

في الأشهر الأولى لزواجنا سارت الأمور على ما يرام، لم تكن سلمى تعرف سبب زواجها بي، ولم تعرف لماذا أصر والدها على زواجها مني، لقد رجحت السبب إلى كونها أرملة شابة، وأن أبيها نظر إلي «عزيز» الشاب صديق سمير كفرصة قد لا تتاح لها لاحقا، فأنا لا بأس بي وذو دخل مناسب، لم يسألني ماذا أعمل؟ كان يعرف أني أعمل داخل الخط الأخضر وكفى، ماذا أعمل أيضا لم يكن يعنيه أو لنقل بالأحرى لم يجد وقتا للسؤال، ولم يرغب بالسؤال والتفكير، قلت لنفسي وأنا أقف أمام المرآة يوم عرسي، وقد ارتديت حلة سوداء:

– يا إلهي، كم أبدو ساحرا.

طبعا فرضت شروطي على أهل العروس، ولما لم يكن بالامكان أن أسكن في بيت والدي، فهو صغير بما يكفي، فقد سكنت في منزل بدأت قبل أشهر ببنائه (غرفة ورواق ومطبخ) لا تبعد سوى عشرات الأمتار عن منزل والدي، وهو مجرد بناء مؤقت إلى حين بناء القصر الذي أحلم به.

تم الاحتفال بي وبسلمى على نطاق العائلة، أعدت أمي باحة منزلنا الصغيرة للعرس وأحضرت مقاعد بلاستيكية من الجيران، طبعا في تلك الفترة كان يناسب الكل ذلك، ففي فترة الانتفاضة لم تكن تقام سهرات شبابية للاحتفال بالزفاف، كما لم تكن تغني النساء، أو تصدح سماعات الصوت بأغانٍ صاخبة.

سلمى طوال فترة العرس هادئة ومائلة برأسها إلى الجانب الايمن، وجلست أنا إلى يسارها وكانت عيناها محمرتين والدموع تنساب منها، ووجدت صعوبة في تقليدها عقد الذهب الذي أحضرته لها.

بعد أيام من العرس، بقيت سلمى قليلة الكلام وهادئة جدا، كنت أتكلم معها بطريقة لطيفة ودون أن أثقل عليها، كنت أريد أن أفوز بقلبها، فحاولت أن أدللها ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وكتمت غضبي لبرودها، وقلة حديثها مع أهلي وابتسامتها الفاترة عندما كنا نجتمع سويا، حتى أن أمي كانت تشيح ببصرها عنها، وتنظر إلي ثم تلوي فمها يمينا ويسارا استهزاء بسلمى.

أذكر ذات يوم عندما استفردت بي أمي وبدأت في الحديث عن سلمى

– ألا نعجبها للسيدة سلمى؟ ألسنا على قدر المقام الرفيع؟

– ليس الأمر كذلك، ربما تحتاج إلى قليل من التعود علينا، فقط ليس أكثر.

– لا أرتاح إليها ولا تعجبني، كانت صديقة لأختك عزيزة رحمها الله، وكانت تأتي إليها، الآن أصبحت تتكبر علينا وعلى معيشتنا بالنسبة إليها، فنحن فقراء لا نليق بها وبأهلها.

– أتعتقدين أنها أكثر ثراء منا، فنحن وهم في الهم شرق.

– المشكلة ليست بها بل بك أنت.

– ماذا تقصدين؟

– يجب أن تريها أنك أنت القوي، وصاحب الكلمة في البيت، هذا الحنان والدلال الزائد لا ينفع.

عندما قالت أمي ذلك عدت بذاكرتي إلى عشرات المرات التي ضربها أبي لأتفه الاسباب، ضحكت في سريرتي ربما تعتقد أنه يجب أن يحدث لزوجة ابنها، كما حدث لها، هذا هو العدل، أحيانا الأنسان الذي يعاني الظلم يريد لكل العالم أن يتذوقوا من نفس الكأس التي شرب منها، و قليلون هم الذين لا يريدون لأحد أن يكرر تجربتهم، في ذلك الوقت نظرت إلى أمي وهي تحرك فاها تتكلم عن الأساليب التي سألوي بها ذراع سلمى، لكني لم أكن أسمع، كل ما رأيته أمامي هو صورة بلا صوت، شعرت كأني ورثت صفات كثيرة من أمي، لقد بدا الحقد والحسد والغيرة في عينيها.

شعرت أني لست معها فلكزتني وقالت:

– هل أنت معي؟.

نظرت إليها وقلت:

– كرري ما قلته سابقا.

أخذت بعضا من تعليمات أمي، وغيرت جزءا من أسلوب معاملتي لسلمى، قلت لها مرارا وتكرارا أني ضقت ذرعا بصمتها وهدوئها، وأنها قد تحمل لقبين بدلا من لقب واحد، وأن عليها أن تغير أسلوبها، وتبدأ بالتفكير في عائلتها الجديدة، ففي النهاية لو رغب بها أهلها ما كانوا زفوها إلي وبسرعة، ربما هزتها تلك الكلمات إلى درجة كبيرة، وكأني رميتها في صحراء لا أحد غيري ينقذها منها، الكل يتخلى عنها إلا أنا، كان لذلك نتائج إيجابية، تغيرت معاملتها وبدت أكثر تقبلا لقدرها الذي رُسم لها.

بعد سنة رزقت بإبني فريد، فرحت به كثيرا، ورغبت في ألا أجعله يعيش ولو جزءاً يسيراً من الحياة القاسية التي عشتها، أغرقته بالعديد من الهدايا منذ

الشهر الأول لمولده، رغبت في إعطائه كل شيء، وأعوض نفسي عن لحظات الحرمان التي وقفت بها رثَّ الثياب، أنظر إلى ألعاب الاطفال الأخرين في العيد.

خفف فريد التوتر بيني وبين سلمى، خلت أن الأمور ستتحسن، وسيبقى هكذا إلى أخر يوم في حياتي، إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم الذي قلب الموازين وأعادني إلى نقطة الصفر.

كان يوم الأربعاء في الخامس من تموز عندما دخلت البيت، كان هادئا جدا، حسبت أنه فارغ، بحثت عن سلمى في المطبخ فلم أجدها، لكن سلمى بالعادة لا تخرج دون إذني فإلى أين ذهبت؟ همست بإسمها، فلم يكن هناك مجيب، توجهت إلى غرفة النوم هناك هاجس أصابني لا أدري لماذا؟ كان الباب مفتوحاً نصف فتحة، نظرت إلى داخل الغرفة، ظهر لي فريد ينام كملاك صغير في سريره الخاص، ويحرك فمه كأنه يرضع بينما عيناه مغمضتان، وسلمى تجلس على حافة السريرالكبير، الموضوع في وسط الغرفة، تحدق في صورة وبجانبها علبة حديدية تخصني إذ كنت أضع فيها بعض من صور ذكرياتي السابقة، تقدمت منها، لكنها لم تشعر بوجودي، خطفت الصورة من بين يديها ونظرت إليها كانت صورة تجمعني بسمير في أول يوم له في الجامعة حيث أصر أن يدعو جميع أصدقائه إلى الجامعة قائلا: أنه لن يبدأ حياته الجامعية بدونهم، غير آبه ماذا يعني ذلك لمحروم مثلي من دخولها، في ذلك اليوم اجتمعنا أنا وسمير وفتحي وماهر ورامز، لكن هذه الصورة جمعتني أنا وسمير فقط، بدا سمير فيها مشرقا ووضاءً، بينما ظهرت أنا وكأني ظله، لا روح فيه أو حياة، بل خيبة أمل وحسد خفي.

مرت تلك اللحظات برأسي في ثوان ثم التفت إلى سلمى، وهي بدورها رفعت رأسها إلي قلت لها:

– ألم تسمعي صوتي أو تلحظي وجودي؟

– لا

– الآن أفهم لماذا؟ عقلك كان مشغولا وفكرك في مكان أخر، أما زال يراود أفكارك؟أما زلت تذكرينه؟.

لم تجب على سؤالي لكن الغضب بدأ يتصاعد في داخلي، فلامس قلبي لقد شعرت بطعم الغدر، فضاق علي صدري فصحت بها:

– منذ متى وأنت تعلمين بأمر هذه الصور؟ هل كنت تمسكين كل يوم صورته لتنظري إليها؟أجيبي.

أمسكت أثناء ذلك يدها وضغطت عليها، وصريت على أسناني حتى كادت تُطحن، نكست رأسها وأزاحته إلى الجانب الاخر ثم قالت:

– لا، لقد رأيتها صدفة، كنت أنظف الخزانة ولاحظتها، لقد نسيتها مفتوحة صباح اليوم.

فعلا، لقد أعتدت على قفل تلك الخزانة، لا أدري لماذا احتفظت بتلك الصور؟ كل ما في الأمر أني نسيت أمرها، مثلما نسيت أن أغلق خزانتي ذلك اليوم بمفتاح أحمله دائما معي، لقد خفت أن تكون قد رأت أشياء أخرى، فقد حوت الخزانة مالا وسلاحا ناريا أيضا فقلت لها بصوت ملؤه التهديد:

– ماذا رأيت أيضا في الخزانة؟ هل التقطت شيئا أخر؟

قبل أن تجيب أسرعت إلى خزانتي فتفقدت السلاح والمال، لم يكن هناك نقص، ثم انتبهت إلى كلامها حيث أقسمت وكررت قولها:

– لا، أقسم لك لم أر سوى تلك العلبة، وكانت دون غطاء، والصور تناثرت منها، فأحببت أن ألقي نظرة.

– آلمك رؤية صورته، أها اليس كذلك؟ ربما كان عليك أن تري صورته وهو يشارف على الموت، وهو ينزف وحده في مكان منفٍ دون صديق أو مفر،

يا إلهي، ما زلت أتذكر نظرته، نظرة المصدومين، بدا فظيعا وهو فاغر فاه، أتعرفين؟لقد أشفقت عليه وقتها، فعلا مسكين، كأنه فأر تم الأمساك به وكل أولئك الجنود حوله.

– عمَن تتحدث، كيف رأيت ذلك، وكيف تصفه كأنك كنت هناك؟

تنبهت إلى ما قلت، فلم أزد حرفا، ولكن يبدو أنها فهمت شيئا، ولعلها رأت السلاح الناري داخل الخزانة، توجهت إلى باب الغرفة لأخرج.

صرخت بي:

– هل كان لك دور في ذلك؟ هل فتحي بريء من الخيانة وأنت من فعلها؟

نظرت إليها ولم أنطق بشيء لقد أصبح كل شيء مكشوفاً، خاصة أنه لم يكن قد بقي على خروج فتحي سوى عشرة أيام من السجن، وأعتقد أنه لن يقصر في إخبارها بكل شيء، علمت لاحقا أنها أخبرت أبيها، أخبرته أني متعاون وأبيع وطني مقابل حفنات من المال وأن طعامها وشرابها حرام، وأنها تريد الانفصال.

غضب أبوها لذلك وأخبرها أنها إذا ما انفصلت عني، فقد أفضح القصة التي بموجبها تم زواجي بها، هنا كانت الطعنة طعنتين، لقد قال لها أبوها أن الناس الآن سيصدقوني بكل سهولة، فقد سارع بتزوجي منها بعد شهرين فقط من موت سمير.

ومن ذلك الوقت وأنا أعيش مع وحش غاضب في صورة كائن جميل.

****

الفصل الثاني عشر

صراع يومي في بيتي، معركة لا تنتهي وحرب لا تضع أوزارها، أريد أن أتحرر من ذلك من تلك الحبال التي تربطني بالأرض، أرغب أن أرتفع ولكني مقيدة، أفك عقدة لتربط عقدة أخرى أشبه بغواص وقع في شبكة صيد التفت حوله، إن سكن وتوقف عن محاولة الأرتفاع وفك القيد وتمزيقه غرق ولكن قواه لا تساعداه، يدفع بكل وقته ولا يفلح بذلك.

لكن هل أستسلم؟هل أعيش هكذا إلى النهاية؟ وأي حياة تلك التي سأحياها إذن، فوالداي لا يريدانني، لقد سلماني لعزيز، وفريد هو قرة عيني لن أتخلى عنه مهما كانت الظروف، ولكن لا يمكنني احتمال عزيز أكثر كم أشعر بالكره والغيظ عندما أعلم بعودته من مستوطنة قريبة ويكون قد قدم تقريره عن أبناء جلدته، وأصبح يخبرني بذلك عمدا، ودون خوف أو وجل هل كان يعتقد

أني جماد لا أملك حيلة ولا أستطيع سبيلا، المشكلة أن الكل يعتقد أنه إنسان صالح، وقد أصبح له اسم في الفصيل، لقد تم تعيينه مؤخرا أمين السر، وعرضوا عليه وظيفة حكومية تناسب درجة تعليمه، لذلك سيسعى قريبا الى إنهاء عمله داخل الخط الأخضر، والالتحاق بالوظيفة والتي تستلزم المبيت في مدينة رام الله.

تخيلت جميع الشباب الذين سيكون مصيرهم مثل مصير سمير على يديه، فهل كان يجب أن أصمت وأمضي في حياتي وكأن شيئا لم يحدث؟ كان علي أن أوقف ذلك أو أغيره.

خرجت من المنزل باكرا وتوجهت إلى منزل والد سمير، قلت له:

– هل تريد أن تعرف من قتل إبنك؟ أنا أقول لك.

أخبرته كل شيء وأقسمت على كلامي أن عزيزا أخبرني، قال لي أن الاحتلال هو من قتل ابنه وليس أحد سواه، رددت عليه :

– وما الفرق بين المنافقين والخائنين وبين الاعداء، ألم يصفهم القران كذلك، ألم يقل الله أن المنافقين أشد خطرا من المشركين في كتابه.

الكل يعرف أني لا أطيق عزيزاً، وقد لا يصدق أبو سمير حكايتي، لذلك كان يجب أن أظهر دليلا، فاسمعته تسجيلا على جوالي لحديث عزيز عن تلك اللحظات التي وشى بها بسمير، كنت وضعت جوال بجانبي على وضع التسجيل، ثم نظرت إلى عزيز وطلبت منه أن يحدثني كيف فعل ذلك؟، طبعا انفرجت أساريره، وهو يحدثني فهو يعرف كم يغيظني ذلك؟.

وضعت الهاتف بين يديه بعد أن نقلت البطاقة الذكية التي تحمل رقمي إلى هاتف متواضع حصلت عليه من عائشة، بعدما أهداها خطيبها هاتفا جديدا أكثر تطورا، وقلت له:

– إن كنت ستضيع دم سمير هدراً، فليست مشكلة، لكن فكر في عدد الشبان القادمين، لقد أصبح أمين سر الفصيل، تصرف، أرجوك.

خرجت من عند أبي سمير وتوجهت إلى أقرب هاتف عمومي، كنت لا زلت أحفظ في ذاكرتي هاتف بيت منى الأرضي، بقيت على صلة مع منى حتى أخر سنتين، حيث لم يعد لي رغبة في الحياة، فلم أتصل بها بتاتا، أدرت الرقم ولم يصلني جواب من الجهة المقابلة، ثم أعدت إدارة الرقم في هذه المرة ردت علي والدة منى، أخبرتني أن منى ليست بالمنزل ولكنها قد تعود بعد ساعتين، أخبرتها أن تسلم عليها وأن تخبرها أن صديقتها سلمى قد اتصلت بها، حالما ذكرت اسمي تذكرتني أمها فقالت:

– هل أنت سلمى؟ لقد حدثتني عنك منى كثيرا، على كل حال، عندما تعود سأعلمها باتصالك.

رجوتها أيضا أن تخبر منى بضرورة الاتصال على الرقم الذي سأعطيها إياه، وقد كان رقم جوالي الجديد.

انتظرت ليلة بفارغ الصبر على أمل أن تتصل منى، وفي صباح اليوم التالي وفي تمام الساعة العاشرة رن هاتفي وأظهر لي رقما غريبا، استبشرت خيرا، ربما تكون منى، لكن خاب ظني لقد كان مجرد رقم خاطيء، وضعت الهاتف جانبا وذهبت إلى المطبخ، أمضيت ساعة في التنظيف، عندما عدت إلى الغرفة رفعت جوالي لأجد مكالمتين لم يتم الرد عليهما، وكانا لرقم مجهول، أعدت ضرب الرقم فجاءني صوتها عبر الهاتف

– منى، كيف أنت؟ لقد اشتقت اليك كثيرا.

– سلمى، أين كل هذا الوقت؟ لماذا لم تتصلي بي سابقا؟ لا يمكنك تخيل مدى سعادتي بالحديث معك

– ليس أكثر سعادة مني، هل يمكن أن أراك؟

– طبعا، أود ذلك سآتي اليك

– لا بل أنا من سآتي اليك، فأنا أذكر بيتك تماما.

– حسنا نلتقي غدا إن شاء الله.

– ربما لا أستطيع غدا، لكن بعد غد سأزورك في الساعة العاشرة صباحا، هل يلائمك ذلك.

– سأكون في العمل في ذاك الوقت، ألا يمكنك الحضور عصرا؟

– لا أستطيع بتاتا، لا يمكنني إلا في الصباح

– حسنا، أعتقد اني بحاجة إلى إجازة، سأخذ واحدة وانتظرك في العاشرة من صباح بعد الغد.

– أراك إذن، إن شاء الله.

أغلقت السماعة وأنا فرحة، ثم ذهبت إلى خزانتي، أخرجت الذهب الذي هو مهري وحقي ووضعته في حقيبة ثم حملت فريد وتوجهت إلى السوق، لقد قمت ببيع ذهبي كله إلا خاتما وأسورة إعتدت أن أبقيهما في يدي.

في صباح اليوم المتفق عليه استيقظت باكرا، نظفت البيت سريعا، استغرب عزيز من نشاطي هذا اليوم، ولكن بدا الرضى على وجهه، وضعت له الافطار، وألقيت إليه بابتسامة بانت معها أسناني، ربما كانت تلك الأولى منذ سنوات، وربما إعتقد أنني بدأت أتقبل الواقع المر، وأنه لا فرار منه، وأنه يجب أن أعيش هكذا حتى أخر يوم في عمري.

لكن لم تكن تلك نيتي، كان يجب أن أجازف، فالتغيير يحتاج إلى قرارات صعبة،

وأحيانا إلى مخاطرات جدية ربما يستحق الأمر المحاولة، ربما أتجه نحو مصير مجهول، وأسوء مما أنا فيه الآن، أو ربما الي جنة حقيقية، لم يكن أمامي خيار سوى أن أثق بالله وأجعله وكيلي، وأحيانا كان ينتابني القلق هل أنا على خطأ أم على صواب؟.

ألبست فريدا، وحملته ثم توجهت إلى منزل منى، استقبلتني منى بحرارة وقد أعدت أطباقا شهية، أقصد أن أمها أعدت تلك الأطباق، لكن منى لمحت أيضا أن لها دورٌ في ذلك.

لم تتغير منى كثيراً، ما زالت قصة شعرها كما هي، إلا أنها الآن موظفة رسمية، ولها وزنها وخاصة أن عائلتها القريبة من أصحاب القرار، جعلها تترقى سريعا، كان لديها الكثير من المعارف والاصدقاء الذين يمكنهم مساعدتي.

بعد الغداء توجهنا إلى غرفتها ولاعبت فريدا، نظرت إليها وقلت لها:

– منى، هل ما زلت على استعداد لمساعدتي؟

– سأساعدك دائما.

– نفس الطلب الذي طلبته منك منذ سنتين، أريد أن أهرب أريد أن أخرج من هذه القرية الظالم أهلها

– وابنك وزوجك

– أنا أهرب من زوجي، لا أطيقه.

– ليس حلا ولا كلاما مقنعا، فكري بعقلك.

– أفهم انك لن تساعديني؟.

– أساعدك، ولكن

– لم أعد أحتمل أكثر، إن لم أرحل، ربما سأنتحر أيهما برأيك أفضل، أن يحظى ابني بأم تحميه وترعاه، أم يعيش حياة بائسة مع أب باع وطنه.

– ما الذي تقولينه؟

– هل ستساعدينني أم لا؟ يجب أن أخرج خارج الوطن، أريد أن أهاجر إلى أوربا حيث لا يعرفني أحد.

– مجنونة أنت، حتى الذكور ومن لا أولاد لهم يجدون صعوبة في السفروالعيش هناك، كيف ستعيشين؟ وماذا ستعملين؟.

– الرزق على الله

– فكري بجدية وتعقل.

– لقد فكرت واتخذت قرارا إما أن تنجديني من مصير مجهول، أو تجعلي لي مخرجا.

صمتت منى كثيرا ربما أدركت الجدية التامة في كلامي وبعد برهة قالت لي:

– حسنا لكن يجب أن تصدري جواز سفر، لدي أقارب في عمان ومصر وايطاليا، سأحاول التحدث معهم

– منى من المهم أن يبقى ذلك سر بيننا، متاكدة أنك لا ترغبي أن تحملي وزر دمي.

– لا عليك.

أخرجت المال من حقيبتي وقلت لها :

– احتفظي لي بهذا المال إلى حين سفري.

أعطيتها المال وودعتها هي والدتها وخرجت، لم يكن المبلغ الذي أعطيتها إياه يحوي ثمن الذهب فقط، بل ضم مالا أعطاني إياه أبو سمير، لقد باع أرضه ذات الثلاثين زيتونة، واحتفظ بالنصف، وأعطاني النصف كان هذا عندما هممت

بالخروج من عنده يوم أن أخبرته عن عزيز، استوقفني عند الباب وقال لي: ابنتي انتظري سأجلب لك شيئا، ثم دخل إلى غرفته وبعد عشر دقائق خرج وفي يده ظرفا ورقيا ضم أربعة الآف دينار، قال لي:

- خذي يا بنتي، هذا حقك.

نظرت إليه بإستغراب وقلت:

- أي حق يا عمي.

- أنسيتِ أنك وريث سمير الوحيدة، ألم تكوني زوجته شرعا كما تدل السجلات الشرعية، أنت على علم أننا لسنا بأغنياء، ولم نكن نملك سوى هذه الأرض، لقد بعتها، إلى من ستؤول، كنت أحافظ عليها كما عيوني وحلمت أن يفعل ذلك سمير أيضا، وأن نجتمع تحت فيء أشجارها أنا وهو وأحفادي، ولكن ذلك أصبح الآن ضربا من المستحيل، وقد أموت في أي لحظة فإلى من ستذهب؟قد يضع الاحتلال يده عليها لقربها من مستوطنته أو يعتبرها أملاك غابئين ثم أني أحتاج المال لعلاج زوجتي حليمة فالمرض يتكالب عليها، ويقضي على قواها رويدا رويدا.

قفزت من عينيه دمعات ساخنة، لم أرفض كنت أحتاج ذلك المال إلى الرحلة التي نويت القيام بها، كانت بالنسبة إلي نجدة ومباركة من الله لما أفعل، لم أرد بعدها أن أفكر إن كان ما سأفعله صوابا أم لا؟ فربما يحد التفكير من عزيمتي أو يضعفني، لقد قارنت نفسي مع تلك الصحابية التي هجرت زوجها عندما تنصر، إذ أصبحت لا تحل له، يفرق بينهما الدين، فقلت:أنا هكذا حالي، برأي لا يمكن أن أصف عزيز أنه مسلم، وبالتالي لا أحل له.

استصدرت جواز السفر وكان بين يدي بعد أسبوع، عاودت الاتصال بمنى وأخبرتها بذلك وضربت موعدا للقائها في اليوم التالي، ذهبت إليها باكرا، وشرحت لي ما علي أن أفعله حتى أصل إلى بر الأمان.

بعد ذلك بثلاثة أيام، خططت للخروج من المنزل فجرا في صباح يوم الاثنين، حتى لا الفت الآنتباه وستنتظرني منى في سيارة على مقربة من بيتي، كان الموعد يقترب، فما هي إلا بضع ساعات حتى أسلك طريقا مجهولا لا علم لي، كيف سينتهي؟وهل سأندم طوال عمري على ذاك القرار أم لا؟ أم سأصل إلى جنتي ومبتغاي وسعادتي، وما أن أبدا بالتفكير حتى أهز رأسي وأطرد الأفكار من رأسي فلا أريد للخوف أن يكبل يدي، فاتراجع عن تنفيذ ما عزمت عليه.

وبينما انا غارقة في تلك الهواجس التي تأتيني من غير إرادة وبين إبتعادها وتوافدها، غرقت حتى نسيت كل شي، نسيت أن لي عائلة خارج جدران هذا البيت، ونسيت أن لعزيز عائلة، سيغيب ثلاثة أيام عن البيت، سينام خلالها داخل مناطق الخط الأخضر وينهي أخر ورشة عمل له هناك، لذلك فهي فرصتي الاخيرة للهرب، لأبتعد وأحظى بزمن مناسب للوصول إلى برالأمان.

فجأة يضرب جرس الباب، كانت أم عزيز تقف أمامي إنها الثامنة مساءً، فما الذي أتى بها، رحبت بها وقلت:

– تفضلي.

دخلت وهي تقريبا لا تقوى على المشي ترفع ساقها اليمنى بثقل واضح و تبدو شفتها السفلى متدلية، بينما يئن صوتها من الألم، قالت وهي تقريبا تلهث:

– زاد فضلك يا بنتي، آه، لا أقوى على المشي فأقدامي تؤلمني.

لم أشأ أن أكون فظة، لكن حاولت أن أستفسر عن سبب الزيارة بلباقة، فقالت:

– إن عزيزاً أرسلني حتى لا تنامي وحدك في المنزل.

تنهدت تنهيدة كبيرة وقلت في نفسي «هذا ما لم يكن بالحسبان، كيف سأتصرف الآن؟ كيف سأغادر البيت دون أن تلحظني خاصة أنها ستنام في غرفة المعيشة

المقابلة للمطبخ والتي لا مكان عندي غيرها لتبيت به، حيث أن كل المنزل لا يزيد عن غرفة نوم واحدة وأخرى معيشة مفتوحة على مطبخ وحمام صغير، حسنا لنؤجل الأمر إلى الأسبوع المقبل، ولكن كيف سأخبر منى، يا الله فليس لدي هاتف الآن، لقد تخلصت من هاتفي قبل يومين، اذ إدعيت أنه سقط مني في آلة غسل الثياب حتى يبدو الأمر طبيعيا، فلا يتصل بي عزيز، أو أحد غيره، إنها حقا ورطة! .

قفزت إلى ذهني جارتنا أم النور فلديها هاتف أرضي، فكرت أن أخبر والدة عزيز أن جارتنا أم النور متعبة، وأني كنت على وشك زيارتها، ولكن استبعدت الفكرة، ماذا لو سألتني: ألم تجدي وقتا أفضل من هذه الساعة وأنت وحدك في البيت لتخرجي؟

بدا حلا غير منطقي ولا مسؤول أيضا، ثم خطرت لي فكرة أخرى أخبرتها أن فريداً يعاني مغصا شديداً، وأنه يجب أن أحضر له القليل من عشبة لتهدئته، نظرت إلي ثم نقلت بصرها إلى فريد، الذي بدا غارقا في نومه، ثم أعادت النظر إلي وقالت:

– أتستغبينني يا سلمى؟ ها هو الصبي ينام ملء جفونه!

– معاذ الله، ولكن يبدو أنك نسيت العناية بالأطفال فقد مر وقت طويل، هذا النوم هو الهدوء الذي يسبق العاصفة سيبدأ بالبكاء بعد قليل ويمتد ذلك طوال الليل، ولن تنعمي بالراحة أبدا، إذا رغبت بإمكانك المجيء معي إلى جارتنا فبيتها ليس ببعيد.

فما كان منها إلا أن عدلت جلستها، فأصبحت قائمة الظهر وهمت بالنهوض وقالت:

– اه، أعتقد أني يجب أن أذهب، على الاقل، أبدل جو المنزل وأشم القليل من الهواء.

حنيت رأسي استغرابا وسارعت إلى القول:

– واقدامك المتورمة، الآن فقط كنت تشتكين وتولولين.

فكرت قليلا ثم أعادت وضعية جلوسها المرتاحة وقالت:

– حسنا أذهبي، ولا تتأخري، سأجلس هنا قليلا ريثما تعودين.

اتكأت على يد المقعد وعقدت يديها كوسادة تحتها وأغمضت جفونها، تفقدت فريداً، ثم أسرعت إلى بيت جارتنا، طلبت الهاتف الأرضي لمنى والحمد لله أنها ردت علي مباشرة، وأخبرتها أن الخطة فشلت وأنني أجلت الموضوع للأسبوع القادم.

ورغم كرهي لهذا التأجيل وعدم قدرتي على الآنتظار لعدة أيام أخر، إلا أن أكثر ما يخفيني أن تهبط عزيمتي أو أفكر في الأخطار والعواقب والغربة والبعد عن أهلي، فأعود عن قراري.

الفصل الثالث عشر

جاءتني مكالمة من سلمى ظهر اليوم، كنت في الجامعة أقدم امتحانات نهاية الفصل الدراسي الثاني، قلقت لأنها أول مرة منذ أشهر تتصل بي سلمى، كان صوتها خافتا ومتهدجا، حالما أنهيت الاختبار، استقليت أول سيارة اجرة ظهرت أمامي وذهبت الى بيتها، عندما وجدت باب البيت مفتوحا، خفق قلبي ربما يكون قد حدث لها مكروه فتحت الباب بحذر، كان المطبخ قبالة الباب، التفت في الجهة المقابلة منه لأرى غرفة المعيشة ولم يكن هناك أحد، وصل إلى مسمعي نحيب كان قادماً من غرفة النوم الوحيدة في المنزل، توجهت إليها، ناديت بإسم سلمى ولم يصلني رد، فدلفت الى الغرفة لأجدها تجلس على الأرض تضم ركبتيها إلى صدرها وتدفن رأسها بين يديها وتبكي، بينما كان فريد في سريره يلعب بلعبة خفيفة في يده، جلست بجانبها واحتضنتها، وساد صمت لم اكن أسمع فيه غير نحيبها وقطعته عندما سألتها:

- ما الأمر، لماذا تبكين؟ هل ضربك من جديد؟

- لم أستطع الهرب، لقد فشلت للمرة الثانية، يمكنك الآن أن لا تلومي نفسك أنك وقفت في وجهي تلك الليلة، بالأمس لم يكن أحد يمسك بي، كنت وحدي ومع ذلك لم أستطع الهرب، لم أقو على ذلك، لقد خفت من المجهول، هاتفت منى وقلت لها: لا أستطيع التحرك لقد رُبطت أقدامي، كأنما ألقى علي عزيز تعويذة، منى، قالت لي عرفت ذلك، أنت غير قادرة على إتخاذ قرار جريء، أنت تخططين دون تنفيذ، تلعبين لعبة وأنا أصدقك وأهرع لمساعدتك ولكنك تفشلين دائما.

- لقد فعلت عين الصواب، هل أنت مجنونة، اين كنت ستذهبين؟ربما كان سيحدث لك شيء، ويعيش فريد مشرداً، لا نعرف له أرضاً أو وطناً، الحمد لله أن الله أراد لك الخير فثبط عزيمتك وعقد رجليك.

حضنتها بين يدي وبدأت أقرأ عليها آيات من القران الكريم لتهدأ نفسها، ومسحت بكفي على ظهرها ثم خطرت لي فكرة، رفعت رأسها بإتجاه نظري وقلت لها :

- سلمى إذا كنت لا تريدين العيش معه، فلماذا تبقين، ما الذي يجبرك على ذلك، غادري هذا المنزل، تعالي معي الآن إلى منزل والدينا.

- لا أستطيع يا عائشة، أخاف أن يؤذيكم.

- ماذا يستطيع أن يفعل؟ لن يستطيع أن يفعل شيئاً.

- الأشرار لهم القدرة على الظلم، فلا ضمير يحركهم.

- أنسيت أن لك خمسة أخوة، يجب أن يكون لهم موقف، تغيرت الأمور الآن لقد كبروا، يمكنك أن تطلبي الطلاق

- وفريد، لن يتركه عزيز لي أبدا، وأنا لن أعيش دونه.

– في القانون يبقى معك، هيا تعال معي، لا تستسلمي لليأس والحزن، وكأن الحياة انتهت فما زال الكثير ينتظرك.

اقتنعت سلمى، ومن ثم قامت بتثاقل وحملت فريداً، وأنا جمعت لها بعض الملابس بالإضافة إلى التي وضعتها في الحقيبة الصغيرة التي كانت تنوي الهرب بها، اتصلت على سعد وأخبرته أن يحضر حالا برفقة سيارة أجرة، كان سعد رافضاً للزواج منذ البداية، لكن لم يكن لشخص مثله أن يكسر كلمة أبيه.

وصل سعد بعد نصف ساعة، نزل من السيارة، ووقف أمام البيت، خرجت إليه و تحدثنا لدقائق، بينما كانت سلمى تقف خلف الباب الرئيسي لمنزلها الذي ستهجره بعد دقائق، اقترب سعد من سلمى، قبَل رأسها وحمل الحقائب ووضعها في مؤخرة السيارة، ومن ثم ركبنا ثلاثتنا في الخلف وجلس سعد بجانب السائق.

وصلنا إلى البيت، عندما دخلنا إلى البيت كانت أمي تعتني بحديقة المنزل، تركت الفأس التي كانت تستخدمها لنكش الارض واندفعت نحونا، أمسكت بسلمى وحضنتها، ولاعبت فريد وحملته، بينما كانت تقبل سلمى، لم تحرك سلمى ساكنا لقد وقفت مثل عمود جامد، وأبقت ذراعيها بجانبها ورأسها منكس، لقد شعرت بالغربة وخافت ان تكون شخصا غير مرغوب فيه، يا الله! كيف يمكن أن يكون ذلك، لقد نشأت في هذا البيت، عاشت فيه أجمل أيام عمرها، لقد كانت مدللة أبيها وأمها، وكيف الآن أصبح بالنسبة إليها مكانا غريبا ونفقا لا تدري أين يوصلها؟ هل ستعيش فيه؟ أو تجبر على تركه مثل دخيل؟.

عندما رانا أبي، وقف صامتا هو الأخر، ونظر الي نظرة لم أفسرها جيدا، ولم أعرف هل كانت عتابا أو استفسارا أو امتنانا منه لإحضار سلمى؟اقتربت سلمى منه، كأنما تنتظر حكما بالموت أو قرارا مصيريا هل سيقول لها:

– سلمى عودي إلى بيت زوجك، ويجب عليك أن تتحملي أي شيء، فهكذا هي الزوجة الوفية.

أو أن يقبلها هنا في البيت الذي لها حق فيه أيضا، ثم استطاعت سلمى أن تتمتم ببعض كلمات خافتة سمعت منها

– لن أعود إلى عزيز

رد عليها والدي وهو هادئ النفس

– لا بأس بنيتي إن كنت تريدين ذلك، لا بأس، أهلا بك.

قال سعد:

– ستمكثين هنا، ولن تعودي إليه سأتصل به، وأخبره أنك ترغبين بالطلاق، أعرف أنه يسيء معاملتك والحياة بينكما مستحيلة.

قالت سلمى:

– إنه الآن داخل الخط الأخضر، وأنه ينام هناك طبعا، وسيعود بعد يومين يمكننا أن نؤجل ذلك إلى يوم الخميس موعد عودته هذا إن لم تكن أخبرته أمه، فلأبد أن ينتشر الخبر سريعا.

رددت:

– عين الصواب، أحسنت يا أخي سعد.

بصراحة لا أنكر استغرابي من حكمتي، واتخاذي ذلك القرار دون الرجوع إلى أحد، كيف أمكنني أن أقنع سلمى أن تأتي، وتتخذ خطوة ليست فقط في مواجهة زوجها عزيز، بل في مواجهة عائلتها أيضا، لقد تغيرت، انتقلت من الفتاة الخائفة من مواجهة العالم لقلة جمالها إلى فتاة بشخصية قوية، شكرا لك خالتي، لقد ساعدتني كثيرا منذ أن أقنعتني أن أعاود الدراسة، وفعلت ذلك، درست ونجحت، وقررت الإلتحاق بتخصص الخدمة الاجتماعية من جامعة القدس المفتوحة، لقد جذبتني النفس الأنسانية والمجتمعات، ربما لأني كنت كثيرا ما أحاول أن أحب نفسي وأتقبلها كما هي.

بعد ساعات من اصطحابي سلمى، قُرع الباب بشدة، فتح أخي الاصغر الباب، فإذا بعزيز يندفع إلى داخل البيت كأسد مذبوح، وقف قبالة أبي والشرر يتطاير من عينيه حتى كاد أن يمسك بتلابيب أبي إلا أنه لم يفعل، وقال بصوت ملؤه الغضب:

- ألا تفهمون؟، ألا تقيمون واجبا للأصول والعادات والتقاليد؟وحتى الدين الذي تدعون أنكم أفضل منا فيه، كيف تدخلون بيت رجل وتسرقون ابنه وزوجته؟ يا لصوص.

استطاع أبي تهدئة عزيز ووعده أن كل شيء سيكون على ما يرام وأنه لن يكون إلا راضيا، ثم رجاه أن يترك سلمى بضعة أيام لينظر في أمرها.

نظر عزيز إلينا نظرة غيظ ثم قال:

- على كل حال هناك ما يسمى بيت الطاعة، إن كنتم لم تسمعوا به، فيمكنكم البحث عن معناه.

ثم اندفع إلى الخارج، تنفست الصعداء، خفت أن يبحث عن سلمى أو أن يمسك بها، ويجرها إلى الخارج، كما نشاهد أحيانا في الافلام السينمائية العربية.

بعد آذان العشاء وأداء أبي للصلاة، جلسنا جميعا في الشرفة الخارجية للمنزل، والتي تطل على الحديقة، أعدت أمي الشاي وجلست إلينا، تحدثنا عن أيام طفولتنا، عن أحلامنا عن ماذا تحقق منها؟وما لم يتحقق ضحكنا حينا وبكينا حينا أخر، أبي كان صامتا معظم الوقت، كمن يغرق في بحر من التفكير العميق، بينما لاعب أخوتي فريد الصغير، وأرتسمت على شفتي سلمى ابتسامة فاترة، تمايل فريد من النعاس حتى أنه نام في حضن سعد

نظرت أمي بحنان إليهما، وتمنت أن يرزقه الله بولد هو الأخر فقد مضى على زواجه سنة كاملة ولا تبدو بوادر في الافق لتكون جدة حتى الآن، وهذا الموضوع

يقلقها جدا ورغم أن سعداً ما انفك يقول لها: إنهما حاليا لا يرغبان بذلك، إلى أن تنهي زوجته رماح جامعتها فهي في السنة الأخيرة منها، إلا أنها جزعة من الأمر وتصر عليه بضرورة مراجعة الأطباء.

استأذن سعد وزوجته في حوالي الساعة الثانية عشر ليلا وغادرا المنزل وتبعتهما أمي إلى الباب، وأغرقتهما بالتوصيات والحذر من الطريق والدعاء لهم بالوصول سالمين.

غادرتنا سلمى أيضا إلى غرفتنا، حملت فريداً وتبعتها، نامت على سريرها القديم ووضعت فريداً في حجرها فلفته بذراعيها، ثم استغرقا في نوم عميق، نظرت نظرة حنان إليهما لقد ظهرا كملكين بريئين، رفعت الغطاء إلى كتفي سلمى ومن ثم تسللت إلى خارج الغرفة، وأغلقت الباب خلفي بهدوء، وعدت إلى أبي وأمي وأخوتي اللذين تركانا هم الأخرين واحدا تلو الآخر.

أعددت قهوة وعدت لأجلس مع أبي، كان أبي يحدث أمي وهو غاضب:

– الكل يتصرف على هواه، لم يعد أحد يهتم لأمري، وكأنهم يتسابقون إلى كسر كلمتي.

عندما رأني بادرني بالقول بغضب:

– لماذا فعلتِ ذلك؟كيف أمكنك إحضار سلمى إلى البيت دون إخباري، هل فكرت بالمشاكل التي سنقع فيها جراء فعلتك؟.

– ماذا فعلت يا أبي؟ سلمى كانت تحاول الهرب، الهرب من كل البلاد، لم تعد تطيق العيش، أليس نحن أهلها؟ألا يجب أن نساعدها، أم نتركها تعاني وحدها دون أن يرف لنا جفن، نحن من سبب لها هذه المعاناة منذ البداية.

– سلمى ابنتي، وأريدها أن تكون سعيدة، لكن لم كل هذا العناد؟ إنها عنيدة ولا

تغير أو تبدل رأيها، ولا تقتنع، كان عليها أن تتقبل زوجها وترضى بما كتبه الله لها، خاصة أنه لديها ولد الآن، قد أتقبل وجودها وعودتها لكن هل من المفروض أن أربي ابن عزيز؟.

- ابن عزيز!! ! أليس ابن سلمى أيضا؟!

- الابن لأبيه، ثم أن ظروفنا صعبة، سعد أخوك هو المعيل الوحيد للعائلة، ولبيته أيضا، فأنا لا أقوى على العمل وأخوتك في الجامعة، هل من المفروض أن أحمل سعدا مسؤولية جديدة إضافة إلى مسؤولياته؟وأن ينشئ ابناً ليس ابنه هذا والله كثير، ناهيك عن المشاكل التي سيسببها عزيز لنا ولأخيك.

- هل يجب أن تكون سلمى هي الضحية؟كبش الفداء الذي نقدمه لنعيش نحن، بينما هي تعاني، لقد سكب القهوة الساخنة في وجهها أمامي، كل هذا حدث وأنا جالسة بقربها ماذا يفعل بها إذا كانا وحيدين؟، أمي، يوم ذهبت إليها لم تكن بخير، ولم تكن سعيدة، وهذا عزيز لا يكاد يفهم شيئا لقد شتمني، وأنا في بيته هكذا دون أي وجه حق، لم أشأ أن أخبرك عندما سألتني لأني لم أكن أريد مضايقتك.

ما إن أنهيت جملتي حتى دخلت علينا سلمى، قالت وفي عينيها نظرة تحدي:

- سأعمل، لن أكون عالة عليكم، ولن أعود إلى عزيز، ولن أترك ابني، لقد اتخذت قراري، وإذا كنتم تضيقون ذرعا بمكوثي هنا، فليس لدي مانع أن أرحل.

نهضت أمي من مقعدها، سارت نحو سلمى واحتضنتها بذراعيها وقالت بلهفة:

- أن لم تحملك الأرض تحملك أعيننا، ستبقين هنا، أنت وابنك.

****

الفصل الرابع عشر

لكن ماذا كنت سأعمل؟، فأنا لا أحمل شهادة دراسية أتمكن من العمل بموجبها، كنت قد ذهبت إلى النوم، لكن أصابني الأرق فلم أغفو سوى ما يقارب العشر دقائق، لقد داهمني التفكير حول ما قصده عزيز ببيت الطاعة، هل سيعديني قهرا إلى بيته، يا إلهي، ألا يفقه شيء؟ أليس لديه احساس بالكرامة؟شعرت بالعطش فتوجهت إلى المطبخ لأشرب كأس ماء، لم أكن أريد أن أسمع، لكن في طريقي سمعت حديث أبي وأمي رغما عني، هل يمكنني أن أنفصل عن فريد؟هذا ضرب من المستحيل، آه، مرحباً بعودتي وحدي، هذا ما فهمته، ولماذا إذا لم يكن محببا ذلك قبل أن أغادر المنزل منذ عامين؟ وأنا أترجى وأتوسل أن دعوني، لا أريد الزواج، ها قد عدنا إلى نقطة البداية، خرجت من بيت أبي، وها

أنا أعود إلى بيت أبي، لكن هذه المرة بطفل، هذا كل ما في الأمر ليس إلا.

هل توقعوا أن ينجح زواجي؟ هل توقعوا أن مشاعري نحو عزيز ستتغير هكذا ببساطة شديدة؟.

عندما قلت أني سأعمل، نظر الكل إلي، في قرارة أنفسهم، سألوا ماذا ستعملين؟ فعلا ماذا سأعمل؟ فأنا الآن لا أجيد شيئا حتى أعمال التحف والتطريز والأعمال اليدوية التي تتقنها معظم النساء اللواتي يبحثن عن ربح مادي، ولا يحملن شهادات جامعية أو لديهن وظيفة ثابتة.

قطع أبي الصمت عندما قال:

– تتفوهين بالتفاهات، أي عمل تتحدثين عنه، وهل تتوقعين أننا سنسمح لك بذلك؟

ردت أمي:

– لماذا لا، إن كانت تستطيع إيجاد عمل مناسب، فلماذا لا تمضي وقتها في عمل مفيد؟ وتكسب القليل من المال تساعدنا في مصروف البيت.

لا أصدق أني ابنتهم. أحسست بالغربة فعلا، وجال في خاطري، هل تكلفهم عائشة ثمن دراستها؟هل يتكلفون من دراسة أخوتي، آه، حقا، عائشة مخطوبة وخطيبها يعمل في الولايات الأمريكية المتحدة وهو يتكلف بدراستها، هل كان سيتغير الحال لو لم تكن مخطوبة؟ ثم تذكرت، يا إلهي، كم أنا ناكرة للجميل؟ألم يدرسني أبي سنتين في الجامعة قبل زواجي المشؤوم؟! .

مضى على وجودي أسبوع عند أهلي، لم أسمع من عزيز شيئا، ولم يظهرأيضا، كان أسبوعاً هادئاً، فلم يكن هناك ما يعكر صفوي. أحيانا لاعب أبي فريدا وأحيانا أخرى تململ من الازعاج ومن صوت بكائه، كلما تضايق أبي من صوته

بدر إلى ذهني أنه فعلا ليس مجبرا على تحمل طفل رجل غريب، كما قال الليلة الأولى لمجيئي.

في عصر يوم الخميس زارتنا جارتنا أم سهيل، وهي تسكن على بعد منزلين من بيتنا جلسنا في الحديقة الخارجية، تحدثنا عن أمور عائلية وأحيانا عن أمور البلاد وتقلب أحداثها وعن شهيد هنا وشهيد هناك، كان لجارتنا أم سهيل ابنة في مثل عمري وكانت تدرس معي في ذات المرحلة الدراسية، إلا أنها لم تكن مجتهدة فقد كانت تنجح بصعوبة سألتها عنها:

- كيف حال مروة يا خالتي؟

- مروة، ممتازة، إنها بأحسن حال، تعمل نهارا في محل للتجميل في منتصف مدينة نابلس، وليلا تعمل هنا في القرية في البيت، ولله الحمد أمورها تمام وتكسب جيدا، إذا كنت تريدين تغيير لون شعرك فيمكنك الحضور إليها فهي ماهرة للغاية.

- شكرا يا خالتي، لا أرغب بذلك، ولكن أين تعلمت مروة التجميل؟

- لقد تعلمت عند مالكة محل التجميل الذي تعمل به حاليا، لقد حصلت على دورة تدريبية هناك ومن ثم لاحظت مديرة المكان لباقتها ومهارتها، فعرضت عليها أن تعمل لديها، في البداية أعطتها مبلغا ضئيلا من المال، ومن ثم بدأت تزيدها و. . . .

بدأت أم سهيل تعطيني المعلومات التي أريدها والتي لا أريدها، كم هو صعب الحصول على معلومة منها، لقد استرسلت في الحديث عن النساء اللواتي يحضرن إلى المحل، وحتى عن المشاكل التي وقعن فيها، ووصلت إلى ألوان صبغات الشعر التي يطلبنها، إلا أني في ذات الوقت حسدت مروة فيبدو أن أمها صديقتها، فيهي تخبرها بكل شيء لكن أرجو أن لا تكون قد أخبرتها سرا مهما، فلا يبدو أنه ما زال سرا.

قطعت حديث أم سهيل وقلت لها:

– هل بالإمكان أن تسأليها إذا كانت تحتاج إلى فتاة أخرى في المحل.

قالت أمي:

– هل تفكرين في تعلم التجميل؟

قلت:

– ولما لا؟ فهي مهنة جميلة.

ردت أم سهيل:

– نعم ستناسبها جدا، خاصة أن سلمى ما شاء الله عنها جميلة وستكون محببة «للزبونات».

قالت أمي:

– تريثي، لتسألي أخوتك وأباك، ربما لا يودون تلك المهنة.

نظرت إليها وقلت:

– أمي، أنا كبيرة بشكل كاف لتولي أموري.

استأذنت جارتنا وقالت:

– حسنا، سأقول لها، مع السلامة

ردت عليها أمي:

– في أمان الله

منذ ذاك اليوم ولم نسمع من جارتنا أم سهيل شيئا، فقد مضى أسبوع منذ

زيارتها لنا، واتفاقنا على أن تخبر ابنتها بشأني، فقررت أن أذهب لزيارتها، اصطحبت أمي وفريداً، كان ذلك ضحى يوم الخميس، سرنا قرابة الخمس دقائق حتى وصلنا إليها، كانت جارتنا أم سهيل في الحديقة الخارجية لمنزلها تسقي بعض الخضار التي زرعتها على جانبي الممر المؤدي إلى باب المنزل، ما أن رأتنا حتى تركت ما في يدها وقدمت إلى بوابة الحديقة، ففتحتها ورحبت بنا كثيرا، أنا شخصيا استلطفتها فهي ودودة جدا، وخفيفة الظل فوجهها يبدو طفوليا وجسمها ممتليء وهي كثيرة الكلام، بمعنى أخر ما في قلبها على لسانها كما يقولون.

أدخلتنا إلى داخل البيت، ثم دلفت إلى المطبخ، وعادت تحمل أبريق شاي، وضعته على أقرب طاولة صغيرة ومن ثم أعادت الترحيب بنا

– أهلا وسهلا، ما هذه المفاجأة السعيدة؟

ردت عليها أمي التحية وسألتها عن بعض أحوالها وأحوال الزراعة، وإذا كانت زراعة الفاصولياء في هذا الوقت من الصيف قد أفلحت لديها.

تباهت جارتنا ان زراعتها ناجحة، وأنها قطفت ما يزيد عن رطل من الفاصولياء الخضراء قبل يومين، وقد أهدت جارتنا أم محمد الساكنة قبالتنا جزءاً منها، وأنها زرعت أيضا الكثير من الخضار، وتقوم بتسميدها قبل زراعتها ودائما تزيل الأعشاب من حولها، فهي تقريبا تقضي ما مدته ساعتين يوميا في تنقيب وتقليب الأرض قطعت حديثها وسألتها:

– هل أخبرت مروة عن رغبتي في تعلم التجميل في المحل الذي تعمل به.

صمتت قليلا ثم قالت بخجل واضح:

– نعم، أخبرتها، وهي بدورها سألت لك مالكة المحل لكنها لا ترغب حاليا بموظفات جدد، فلديها ما يكفيها، ثم قالت لولا أن مروة تعمل لديها منذ زمن بعيد، لطلبت منها أن تترك العمل، ذلك أن مروة كثيرا ما تتأخر بالوصول إلى

المحل أو أحيانا تقفل راجعة عندما تكون الطرق مغلقة، خاصة أن الطريق ليس عليها ضمان، فأحيانا تغلق الطريق الترابية الالتفافية المؤدية حاليا إلى نابلس فتضطر إلى العودة، وهذا يزعجها، ولكن بعض «الزبونات» يطلبن مروة بالتحديد، وذلك لأن مروة ماهرة جدا والكثير منهن.

قطعت كلامها وقلت:

– نعم، فهمت، حسنا ليست مشكلة، لقد سعدت بزيارتك على كل حال، أشكرك

ثم وقفنا ومددت يدي لمصافحتها وقفت أمي وأمسكت بيدي فريد وردت علي جارتنا:

– اهلا وسهلا بكما، لا تؤاخذيني يا بنتي، رغبت حقا في مساعدتك

– ليست مشكلة، لقد عملت ما بوسعك.

غادرنا البيت وقد بدت ملامح خيبة الأمل على محياي، فقد رسمت تخيلات وأحلاماً كثيرة حول هذه المهنة، قرأت عنها في المجلات المخصصة، انتبهت لكيفية رسم ابنة عمي سعاد للكحل في عينيها عندما زارتنا ليلة الأمس، حتى لقد استغربت إمعاني النظر إليها وحسبت أني أنتقدها لثقل الكحل في عينيها، والآن كل ذلك ذهب أدراج الرياح، وعدت الى التفكير في مهنة أخرى، إذ كيف لي أن أبحث عن مهنة التجميل وأنا لا أمتلك الخبرة الكافية، وقادني اليأس الى التفكير المحبط ومن ثم تذكرت فريدا ورغبتي أن أحتفظ به، لذلك لم أرغب بالاستسلام، فليس الآن وقته، لذلك قلت لنفسي سأبحث عن عمل أخر.

لكن ما العمل الأخر؟ ومن أين أبحث؟ خطرت ببالي منى، لقد حملتها الكثير من مشاكلي ولكن منذ ذلك اليوم لم أتصل بها، أو تبادر هي بالاتصال بي، يبدو أن أواصر صداقتنا قد انتهت، فقد خاضت شجاراً مع أهلها عندما فكرت بالهرب إلى الخارج، وأصرت على مساعدتي، ولم أستطع أن أفعل ذلك، وقد سببت لها الإحراج ويبدو أنها لم تعد ترغب في صداقة فتاة مترددة وتعيسة مثلي.

مضى أسبوع أخر ولم أسمع من عزيز شيئا، ولم يحضر أهله إلينا، وهذا غير مريح لي البتة، فأنا لا أشعر بالأمان، ولا أشعر أن مأساتي انتهت، هذا التوتر وعدم الاحساس بالأمان جعل أعصابي لا تحتمل شيئا، وحساسيتي زادت تجاه كل انتقاد صغير، أصبحت أفسر شكوى أبي من المصروف هو سهماً موجهاً إلي فأنا من زاد العبء عليه، وحتى فسرت غضبه عندما كان يجلس إلى التلفاز ويستمع إلى نشرة الأخبار وشتائمه الموجهة إلى من يخربون البلد، أنه يعنيني أنا ورغم أن أبي دأب على هذا العمل منذ سنين فنشرة الأخبار في التلفاز مقدسة، وكثيرا ما قال أنه يشتهي خبراً جيداً إلا أنه استمر في مشاهدة الأخبار، وكان ابتياعه للصحن الفضائي قبل خروجي إلى الجامعة عرضا مستمرا لرفاهية الأخبار، وذهب بي خيالي إلى أن الجارات يقصدنني إذا ما تحدثن عن الزوجات أو عن قصة سمعنها عن طلاق ما هنا وهناك، فالناس لا يعذرون المرأة، بل هي الملومة في كل مشروع زواج فاشل، لا أعرف ماذا يثرثر الناس من ورائي؟ لكن إذا فُتح أي حديث عن كراهية الطلاق، كنت أغادر الجلسة على الفور.

وأحيانا سمعت تصريحات وتلميحات مباشرة عن عدم سؤال عزيز عن ابنه، وأني هنا منذ اسبوعين ولم يعد ولم نره، ما كان يزعجني، هو أعتقادهم أن مكوثي هو لفترة وجيزة وأن خلافنا خلاف عادي، ويحدث بين أي زوجين، فحالما يأتي ويرضيني بكلمتين، سأعود معه وتنتهي الحكاية، لماذا علي أن أقول مرارا وتكرارا أنه من المستحيل أن أعود إليه؟وأني سعيدة أنه لا يسأل عن ابنه، فأنا اتمنى أن ينساه، وأن خلافي معه هو خلاف مباديء وقيم وخلاف على مصدر الرزق، فلست مستعدة أن أكل من ماله أو إطعام ابني منه، لا أدري هل كانت تربيتي ونشأتي على ذلك مجرد نظريات وأحاديث عابرة، وأنه حالما أقع في أمر يخالف مبادئي، فعلي أن أقبل وأنسى، لذلك أنا مصرة على العمل، وعندما سمعت أن هناك نسوة من قريتنا يعملن في مجال حكاية الملابس قررت أن ألتحق بهن، حقا الاجر المادي لقاء هذا العمل غير مجز، وساعات

العمل طويلة، لكن هي أفضل من الجلوس في البيت والفراغ والتفكير المستمر في المستقبل المجهول.

توسطت لي عائشة عند السيدة نداء، وهي سيدة في منتصف الأربعينيات من عمرها تعمل في هذه المهنة منذ ما يزيد عن عشرين عاما، وحاليا هي تشغل موقع رئيسة العاملات في مصنع للحياكة يقع في بلدة مجاورة لبلدتنا، وهي أرملة منذ خمس سنوات، ولديها ثلاثة أولاد وبنت واحدة، حقا هي أرملة منذ خمس سنوات، ولكن عائشة قالت لي أن زوجها لم يعمل طوال حياته، فبعد زواجه منها بسنة سقط عن سقالة وهو يعمل في رام الله، وأصابه الشلل النصفي، وطبعا لم يعترف صاحب العمل بحقه أو يدفع له تعويضاً حيث قال أنه حثه كثيرا على أخذ الاحتياط ولبس الخوذ واستخدام سقالة جيدة لكنه لم يسمع له.

هي تخرج من الساعة السادسة صباحا وتعود إلى البيت الساعة السادسة مساءً، يوم كامل من العمل المرهق المتواصل، كانت في السابق تتركهم برعاية والدتها التي عاشت مع نداء لأنه ليس لديها أي أولاد سواها، وقد توفيت أمها منذ عامين تقريبا وهم الآن اكبر واقدر على البقاء وحدهم قلت لها:

– هذا محزن، أن تعيش وكأنك ميت فلا إنتاج أوعمل، لا بد أنه احترم وقدر نداء كثيرا لوقوفها بجانبه قبل وفاته.

– بالعكس، كان يسيء معاملتها، لقد تعرفت إليها منذ سنتين فقط، أثناء تنقلنا في الحافلات فقد كنت أركب أحيانا في حافلة المشغل عندما بدأت الدراسة، وأنت تعرفين الطرق المغلقة أيام 2003، فكنا نقضي وقتا طويلا في الطريق ودأبت لاحقا على زيارتها فكانت تحدثني عن معاناتها.

– يا إلهي، رغم كل ما تحملته وأساء معاملتها! .

– هو أعتقد بذلك أنه يثبت رجولته، فهو عاجز وطبعا في داخله غضب، المشكلة

أنها تفهت ذلك، قالت لي أنها تعتقد أنه يشعر بها كثيرا ويغضب من عجزه، وذلك أفضل من كونه غير مبالٍ.

- أين تترك أولادها الآن، بما أن زوجها وأمها قد توفاهما الله؟

- أطفالها يبقون وحدهم في المنزل، لكنها لا تقول ذلك، فهي تخشى أن يستغل أحدهم وجود الأطفال في المنزل، لذلك هي لا تنفك تقول أن عمتهم تأتي إليهم يوميا، لكن الآن اطفالها كبروا، فابنتها تبلغ من العمر الثانية عشر وهي تساعدها في أعمال المنزل.

شربنا القهوة بعدها أخبرتها بحاجتي إلى العمل فقلت:

- سمعت أنك رئيسة العاملات، وأنك أنت من أكثر العاملات هناك خبرة، وأنا أرغب بالعمل فهل يمكننك مساعدتي؟.

- حقا، إن لك حظ جيد، فنحن بحاجة إلى عاملة، ففي أيام الصيف يتضاعف العمل في المشغل وهناك عاملة لدينا سوف تترك العمل قريبا، فهي على وشك الزواج، ولكن هل تجيدين الخياطة؟.

- حقا، أنا لا أجيدها، ولكني سريعة التعلم، فيمكنني أن أتعلمها في أيام قليلة، فأنا ماهرة وذكية، وسأبدأ من اليوم فأمي تملك واحدة آلة خياطة.

- حسنا وأنا أملك واحدة أيضا كالتي لدينا في المشغل، ولكن هذا سيصعب الموضوع، فليس لدينا وقت لنعلمك الخياطة، فالمهم هو تسليم «الطلبية» في موعدها. ولكن قد أعطيك درسا، ومنذ هذا الوقت إلى حين رحيل الفتاة قد تكونين أتقنت بعض الخياطات، وتدربت قليلا، سأخبر مدير المشغل عنك.

- أشكرك شكرا جزيلا، أرجو أن لا تنسي أمري.

- اعتمدي على الله وعلي، سأعمل كل جهدي.

ودعنا السيدة نداء، ثم غادرنا قبل المغرب بقليل، قلت لعائشة أثناء سيرنا:

- أخشى أن تنسى الموضوع.

- لا تقلقي، وعلى فرض أنها نسيت، إذا قدرالله الرزق لك، فمن المؤكد أنك ستعملين، فلا هي أو غيرها سيأخذ منك ذلك، فكفي عن القلق، ودعينا نستمتع بالهواء العليل ومشاهدة هذه المناظر الجميلة.

أرسلت نظري إلى حيث أشارت عائشة كانت هناك بساتين من أشجار الزيتون تنخفض تباعا على طول الجبل كأنما هي الجنائن المعلقة، وكانت تنكسر أشعة الشمس في مغيبها لتثير الضوء الأحمر الناعم، وأجمل من ذلك هو اشعة الشمس النافذة من بين الغيوم الصيفية قلت لها:

- حقا انه منظر رائع. عائشة، برأيك، ماذا يخطط عزيز؟ لماذا لم يظهر حتى الآن؟.

- لا أعرف، هل أنت. . .

- لا، لا يمكن ذلك أنا أخشى فقط أن يفعل شيء ما، توقعت أن ياتي ويهدد ويتوعد، الله أعلم ماذا يخطط؟

- قالت لي زميلتي في الجامعة سماح، تعرفينها، جارتهم لبيت أهل عزيز، قالت لي أن أم عزيز أخبرت أمها \ منذ اسبوعين لم يأت إلى البيت وأنه ينام في عمله الجديد في مدينة رام الله، وأيضا أخبرتني أنها تدعو عليك يا سلمى، فأنت السبب.

- الله يستر، فأنا حقا خائفة، أخاف أن يؤذي أخوتي فهو لا يخاف الله.

- قلت لك لا تقلقي، ربما يكون قد مات أو أصابه مكروه، الله كريم لنرتاح منه.

- عائشة!!

- ماذا؟ألا تودين ذلك، هل حن قلبك أم ماذا؟

– لا، ولكن أستغرب، لم يسبق أن دعوت على أحد أو تمنيت مكروها لأحد.

صمتت عائشة قليلا

– أنت لا تعرفينني جيدا، ولكن يبدو أني قد فُسدت على ما يبدو.

ضحكت من ملاحظتها وأكملنا مسيرنا إلى البيت، حقا لقد كانت جولة ممتعة، أخبرت أمي أني متفائلة هذه المرة، وأن هذا العمل يناسبني كثيرا، سخرت من نفسي «آه، نعم، إنه يناسبني كثيرا»، متى وأين وكيف ناسبني ذلك؟لم تخطر ببالي تلك المهنة طوال عمري، لم أحبها، ولم أعلم عنها شيئا، لقد تخيلت نفسي أحيانا طبيبة، ثم تخيلتها مهندسة، ثم معلمة، وطبعا تفوقي الدراسي طوال عمري فتح لي الأحلام، كنت أشفق على تلك الفتيات الاضعف مني تحصيلا، لقد تخيلتهن نساء بيت لا يجيدن سوى الكنس والطبخ.

والآن ضاعت أحلام الدراسة وأحلام العمل بعد الدراسة، ويجب أن أبحث عن عمل، عمل يناسب إمراة لا تتقن شيئا سوى جلد الذات والبكاء.

كيف يمكننا أن نستمر؟نستمر في تقبل أمور لا تهمنا، ونجامل في أمور لا تعنينا، أو حتى نبتسم في وجوه أناس ذوقا منا، بينما في قرارة أنفسنا نتمنى لو نصرخ في وجوههم، ونبث كل الغضب الذي سكن داخلنا لنقول لهم: كم أنتن بغيضات، كم أنت مغرور؟.

هذا ما تمنيت أن أقوله لتلك العاملات اللواتي كل همهن أن يعرفن لماذا تركت زوجي؟ وهذا ما أتمني أن أقوله لمدير المشغل الذي يعتقد أنه صاحب المال وأننا نكرة نعمل تحت إمرته؟

فهذه المرة لم أحتج إلى إعادة تذكير نداء، فقد اتصلت بعائشة بعد أربعة أيام، لتقول لها أن المدير وافق على الفتاة التي رشحتها ألا وهي أنا، ولكن لم تخبره أني لا أتقن الخياطة، بل أخبرته أني ماهرة فيها وأني سأبدأ العمل بعد ثلاثة أيام،

لذلك كان علي التدرب، فذهبت إلى منزلها مرتين وتعلمت كيفية فتح الالة، وتثبيت قطعة القماش وتركيب الخيوط الخارجية والداخلية، والقطع المكونة للماكينة وكل ما أحتاجه الآن هو الخبرة وهذه سأكتسبها تباعا أثناء العمل.

انتظرت نداء في اليوم الأول لي منذ السادسة إلا ربعا صباحا، ودعت فريداً بكثير من الدموع، لقد اعتقدت أني لن أحتمل كل تلك الساعات من الفراق، ورجوت أمي أن تهتم به وأن لا تسمح له بالخروج فلعل أحدا يأخذه.

حضرت الحافلة في تمام الساعة السادسة والربع، جلست بجانب نداء وأخذت الطريق منا ساعة حتى وصلنا إلى المشغل، دخلت المشغل وصحبتني نداء إلى الآلة الفارغة التي شأشغلها، نظرت باقي العاملات إلي وشعرت بالغربة والخوف، شعرت أنهن يرمقنني، نظرت إلى نفسي، هل هناك من خطب ما في ملبسي؟ بدا ذلك واضحا الآن، ربما نسيت أني ذاهبة إلى العمل وهو ليس في منطقة راقية يحتاج إلى الآناقة فهو عمل طويل ومضنٍ ويجب أن أرتدي شيئا أكثر راحة.

بعد قليل عادت نداء وهي تحمل مجموعة من قطع القماش و قالت لي:

– هذا العمل سيكون سهلا عليك، كل ما عليك فعله هو حبك قطعة الظهر من القماش مع قطعة الصدر وعند إتمامه ضعيه في هذا الصندوق الضخم.

– حسنا، أستطيع فعل ذلك، لقد فهمت.

قلت ذلك وتقريبا صوتي أقرب إلى الصراخ، فقد اعتقدت أنها لا تسمعني من صوت ضجيج الآلآت، شغلت الآلة كما علمتنتي نداء وبدات بالحياكة، لكن لم تكن الأمور تسير كما يجب، فلم تكن الحياكة مستقيمة، أوقفت الالة وفككت ما حكت، ومن ثم أعدت العملية، لكن ذات المشكلة تتكرر، أخذت نفسا عميقا وقلت لنفسي سأركز أكثر، سحبت الخيوط التي حكتها، وتأكدت من الالة ومن خيوطها الداخلية والخارجية، وأعدت عملية الخياطة مرة ثانية وثالثة وفي

المرة الرابعة كان يقف فوق رأسي رجل ثلاثيني، أبيض البشرة وطويل و مرتب الهندام والشعر، رفعت رأسي فإذا به ينظر إلى قطعة القماش التي تقريبا تلفت جوانبها بين يدي، ثم نادى نداء بأعلى صوته، جاءت نداء مسرعة وألقت التحيه عليه وهو بدوره رد ببرود كبير ثم قال:

– هل هذه هي الخبيرة التي أحضرتيها إلينا؟

أمسك بالقطعة المخيطة التي كانت بين يدي ودفع بها إلى نداء وقال:

– أنظري، الحياكة ليست مستوية، وهذه المرة الألف التي تعيدها، أنها تمسك قطعتي القماش ذاتها منذ ما يقارب الساعة.

ومن ثم رمى القطعة أمامي وأنصرف.

نظرت إلي نداء نظرة عتاب وقالت:

– ما الذي فعلتِه؟ لقد أحرجتيني، كيف ساتصرف الآن؟

– لقد بالغ في الوصف، فهي ليست المرة الألف كما يقول وليس ساعة، الآن حضر . .

لاحظت أنها ترمقني بنظرات غاضبة فسارعت بالقول:

– حسنا لا تغضبي يبدو أني متوترة، سأتحسن، إنها المرة الأولى لي، أنت تعلمين، افعلي شيئا.

– حسنا بما أنه لم يقل اطرديها أو دعيها تغادر فسأهمل ملاحظاته.

لحقت نداء المدير وجلسا لمدة خمس دقائق في الغرفة الزجاجية التي تحوي مكتبا وتطل على القاعة الكبيرة الحاوية للآلآت الخياطة، ثم عادت وهي مبتسمة قالت لي:

– الحمد لله، لم نتحدث عنك، فهو سيسافر بعد ساعة إلى الأردن، وسيمكث هناك أسبوعا، وهذا وقت كاف لتكتسبي المهارة الكافية، فيا ويلك إن لم تفعلي.

– اطمئني، فأنا ماهرة كما قلت لك أنه عمل بسيط، سأتحسن على الاكيد، كوني متاكدة.

بعد ثلاثة أيام من العمل تحسنت حياكتي، لكني لم أكن سريعة كما الأخريات، مما جعل القطع تتراكم أمامي، وبينما كانت باقي العاملات يأخذن وقتا للاستراحة، كنت أتناول إفطاري وأنا أعمل، وهذا العمل المتواصل أصابني بالأوجاع، لقد أصبح ظهري يؤلمني واكتافي متصلبة، وكنت أصل البيت مرهقة جدا ومتعبة، فأتناول طعامي وأنا تقريبا شبه نائمة، ثم أمسك فريدا وأحيطه بذراعي، وأغرق في نوم عميق، ورغم التعب الجسدي إلا أن نفسيتي كانت أحسن بكثير، فقد انعزلت عن العالم، فلم أعد أسمع ما يحدث، ونسيت كل من حولي باستثناء فريد، فكأني لا أراه وأصابني ذلك بالشعور بالذنب فأنا لست أما جيدة.

عاد مدير المشغل بعد عشرة أيام، ويبدو أنه نسيني أو هذا ما أعتقدته فأثناء احدى الجولات أمسك بقطعة من أمامي وقال:

– لقد تحسنت خياطتك، لا بأس بها

ارتسمت على محياي ابتسامة هل هذا يعني أنه راضٍ عن أدائي؟

ثم التفت إلى القطع التي تنتظر أمامي موعد خياطتها فأردف:

– لكنك بطيئة، يجب أن تسرعي أكثر.

– حسنا. سأحاول

اتكأ على طاولة الخياطة وقال:

– سأفعل، وليس سأحاول.

ابتلعت ريقي وقلت في نفسي:

– يا له من مغرور لقد مللت من أمثاله، وماذا يعني بذلك هل هذا تهديد بالفصل؟.

لكن علي أن أحاول، بل يجب أن أحاول، وعزمت على أن أزيد سرعتي، لكن هذا العمل ضغط على يدي وأكتافي، شعرت بالرضا عن نفسي عندما حددت كميات يجب إنهاؤها في وقت محدد ونجحت في ذلك.

الآن مضى على عملي في المشغل عشرون يوما، بدأت تنشأ مشاعر من الألفة بيني وبين العاملات أخيرا تمكنت من أخذ وقت الاستراحة، ومجاراتهن في سرعة العمل، لقد تغيرت مشاعري نحوهن، أصبحن في نظري أكثر لطفا وجمالا، وهن لم يعدن يفتحن معي مواضيع تزعجني، ولقد استغربن من درجاتي أيام المدرسة ومن تفوقي ومن دراستي لثلاث سنوات في الجامعة، بعضهن أشفقن علي أنني لم أكمل تعليمي وبعضهن نصحنني أنني يجب أن أكمل دراستي، ولكن كيف لي ذلك؟ فالمال والوقت ليسا ملكي، وهما رأس مال كل متعلم يبحث عن العلم، سأبقى في هذا العمل والله أعلم أين ستنقلني الأيام، وربما أتقبل هذا العمل وهذه الحياة، فأحيانا تكون الجنة في قلوبنا وليست في أيدينا.

****

الفصل الخامس عشر

خرجت من بيت والد سلمى وأنا في قمة الغضب، كنت أعلم أنها ستهرب، أعلم بذلك منذ أول أسبوع خططت به لذلك، لقد انتبهت إلى تصرفاتها الغريبة، غياب ذهنها وشرودها, بدا كأن هناك شيئا ما يشغل بالها، لم اكن أعلم ماذا تخطط وماذا تنوي أن تفعل؟ لكن للأسف أنا لا أثق بها، ولذلك كنت دائما على حذر، وهذا شر أخر يضاف إلى حياتي القاسية، لا أعرف الراحة، دائما على حذر، ماذا كان علي أن افعل حتى تحبني، لقد أمنت لها المنزل، وأعطيتها كل ما تطلب ولكنها كانت لا تطلب مني شيئا.

كانت المرة الأولى التي طلبت مني شيئا عندما أرادت استصدار جواز سفر، لقد أخبرتها منى أنه لا بد من موافقة الزوج، أتوقع أنه لا منى ولا سلمى يعرفن القانون، وأن كان يشترط ذلك أم لا، لكنها كانت الخطوة الأولى ليساورني الشك

حول نية سلمى، أعدت عشاءً أحبه، أكلت وأنا شديد الدهشة، نظرت إليها، مرات ومرات، حتى أني لم أكل إلا بعد أن تذوقت هي الطعام، لكن لم أجعلها تعتقد أني غير واثق في الطعام، فالشيطان وسوس لي أنه قد يكون مسموما، وهذا اللطف المصطنع يخفي شرا وراءه، يا إلهي! إلى أين وصل بنا الحال؟. بعدما أنهيت وجبتي، قالت لي :

– هل يمكنني أن أطلب منك شيئاً؟.

نظرت إليها، ولم أنبس ببنت شفه، دار في خلدي أنها ستطلب الطلاق، لزمت الصمت، فلما لم تر مني رداً استأنفت حديثها:

– أحتاج إلى استصدار جواز سفر.

أجبت ببرود:

– ولماذا تحتاجينه، هل أنت مسافرة؟

– لا، أبدا ولكن يجب أن يكون لكل إنسان جواز سفر، لا نعلم ماذا تخبيء لنا الأيام، ماذا لو هُجرنا ونُكسنا نكسة ثالثة؟.

– لن ينفعك جواز السفر حينها.

– إنها المرة الأولى التي أطلب منك شيئا، كل ما أحتاجه هو موافقتك.

– ليس لدي مانع، إذا كان هذا يرضيك، ففي النهاية أين ستذهبين مني، ليس لك مفر.

قلت ذلك ونهضت، لكن قلبها كان يدق بصوت مسموع، كغزال خائف من التقاطه كفريسة.

لاحقا أمسكت بهاتفها الجوال ولاحظت أنها تجري اتصالات مع منى، منذ زمن

طويل لم تتحدث مع منى، فما الجديد الآن؟ نقلت الرقم وأجريت اتصالاً، انها فتاة على الطرف الأخر، لم أعَرف عن نفسي بداية، لذلك أغلقت منى الهاتف في وجهي.

أعدت الاتصال أكثر من مرة، وقلت لها أني زوج سلمى. تحدثت معي بتكلف وبغير مبالاة، ولم أستطع التوصل إلى اللقاء بها لمعرفة ما الذي تخطط له سلمى، ولما لم يكن صعبا علي أن أجد مكان عملها، فأنا الآن أصبحت أمين السر، ماذا يعني أمين السر؟معارف كثيرة ومعلومات أسرع. وخاصة مع الوظيفة التي استلمتها قبل أيام حيث أصبحت لي وظيفة في احدى المراكز الأمنية، وظيفة متواضعة بسبب عدم حصولي على شهادات عليا، لكنها كافية بالنسبة لي.

ذهبت إلى مكان عملها، استأذنت وجلست مع المدير المباشر عنها، عرفته بصفتي وعملي، رحب بي كثيرا، وأثناء خروجي عرجت على مكتبها، اقتربت منها وعرفتها بنفسي، وقفت منتصبة، أخبرتها بأهمية الحديث وعرفتها بمركزي وطلبت منها أن تستنتج العواقب القانونية لمساعدة زوجة ضد زوجها، أخبرتني أن سلمى هي من تسعى إلى الهرب وهي تحاول المساعدة من باب الصداقة فقط، وليس لها مصالح شخصية في ذلك.

فقلت لها:

– لنجعل لك مصالح شخصية إذن.

اتفقت معها على تزويدي بكافة المعلومات حول تخطيط سلمى للهروب، وأخبرتها أن تحتفظ بالمال أو الذهب مقابل ذلك، ولم أكن أعرف يقينا إذا كانت سلمى قد باعت الذهب أم أعطته لها كما هو.

لقد اتفقت معها على مساعدة سلمى وعندما تكون في السيارة، أظهر لها، وهنا لا يمكن لأحد أن يحاسبني على الطريقة التي سأتصرف بها، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، في المرة الأولى، أرسلت لها أمي لتراقبها قبل أن تتهور

بعمل ما، كنت أريد لأخر لحظة عدم التعجل وفقدان سلمى، أردت أن أمنحها فرصة للتفكير، فما زالت سلمى توجع قلبي حتى الصميم.

أخبرتني منى أنها قد اتصلت بها، وأجلت مسألة الرحيل إلى الاسبوع القادم، ارتحت قليلا وودت لو أبقي أمي معها طوال الوقت، لكن ذلك لم يكن حلا، أردت من سلمى أن تختارني بنفسها، أن تقرر البقاء بإرادتها، أردت أن أجعلها تتقبلني، ورغم أن عقلي يقول لي: هي لن تفعل، إلا أن قلبي يأبى أن ييأس أو يسلم للأمر الواقع، فهو مليء بالأمل.

ليلة هروبها الثانية، جلست في مكاني حيث أنام في سكني الجديد في رام الله، أنتظر مكالمة من منى، جلست وأنا في حالة حزن شديد وغضب، تمنيت حتى أخر دقيقة أن لا تفعل سلمى ذلك، لم أذق للنوم طعما طوال الليل.

منذ ساعات الصباح الأولى، أجريت اتصالا لمنى لأرى أين سلمى الآن، إذ لا بد أن تكون معها كما يقتضي الاتفاق، جاء رد منى من الجهة الأخرى من الهاتف لتخبرني أن سلمى عدلت عن قرارها ولم تحضر.

قالت لي أن نقود الذهب الذي أعطته سلمى لها من حقها الآن كما وعدتها في أخر لقاء بيننا أن تأخذه إذ ما أحضرت لي سلمى، لكنها لم تكن تعلم أني أدرك أنها تملك أكثر من ذلك، فهناك المبلغ الذي حصلت عليه سلمى من أبي سمير، فهي لا تعلم أن أبا سمير قد باع أرضه لي، وقد قال لي مستئذنا أن يعطي نصف المبلغ إلى سلمى بصفتها وريث سمير الوحيد، وهو لن يشعر بالندم لذلك، فأنا أيضا في مقام ابنه، ألم يكن بيننا ماء وملح؟ فقد نمت كثيرا في بيته وتقاسمت معه لقمة العيش.

لم أعترض وطلبت منه أن يعطي المبلغ إلى سلمى مباشرة، لكن للأسف سلمى لا تفكر بعقلانية أنها مندفعة ولا تحركها سوى مشاعرها، لقد خانها ذكاؤها ووثقت بمنى، حالها حال سمير الذي أعتقد أني قريب منه.

ضحكت في سريرتي وقلت:

- كانا مناسبين لبعضهما فكلاهما غبيين كما أرى، لا أدري لماذا فشلت في المدرسة ونجح هو، وأيضا سلمى، انهما لا يعرفان كيف هي الدنيا؟ لا يعرفان سوى إلتهام الكتب، هذا ما توصلت إليه من تحليلي لشخصيتهما، وأنت ما رأيك يا منى؟

- أرى أنك مجنون كما كانت تقول سلمى، لماذا أصررت على رؤيتي؟

- حسنا، أردت ذلك لأني، بصراحة لأني. .

- لا تقل أنك معجب بي

ضحكت من كل قلبي، وقلت:

- أعوذ بالله، هذا مستحيل، هل أنا مجنون؟

شعرت بالغضب والاحراج، حدجتها بنظرة قاسية وقلت:

- وعدتك بأن نقود الذهب الذي باعته سلمى هو من حقك في حال هربت سلمى واستلمتها منك، ولكن ذلك لم يحدث، بمعنى أخر لم تنفذي حصتك من الاتفاق، فعلى أي أساس تطلبين المال؟

- ليس ذنبي أنها مترددة وغيرت رأيها.

- وما ذنبي أنا أيضا، هذا المال لي، على كل حال كم يبلغ؟

- الف دينار فقط.

- هل هذا هو كل ما أعطتك إياه سلمى؟

- نعم وماذا غير ذلك؟

قالت ذلك وبدا عليها الاضطراب، تنهدت وأشحت نظري عنها ومن ثم عاودت النظر إليها وقلت:

– مسكينة سلمى، على كل حال يجب عليك إعادة خمسة الاف دينار، أنت تعرفين من أين أتت الأربعة الأخرى، كما أحببت أن أقول لك أنك لا تعرفينني جيدا، أنا أجيد الاصطياد، وأجد راحة كبيرة في التخلص من أولئك الذين يزعجونني، ربما أخبرتك سلمى فلا صديق لي ولا صاحب، أرجو أن تكون الفكرة وصلتك، سأذهب معك الآن إلى البيت وسأنتظر أسفله، وسأمهلك ساعة فقط لإحضار المال.

بلعت منى ريقها بصعوبة وتملكها الخوف، ومن ثم نفذت ما قلته لها بحذافيره، بعدما أعطتني المبلغ سحبت منه ورقة من فئة الخمسين ديناراً وقلت لها:

– هذا لك، جراء تعاونك.

لقد استعدت مالي، لكن سلمى فلن أدعها ترتاح، سأبقيها كالمعلقة، سأكون حبل المشتقة الذي يلتف حول عنقها، لا ينفك فتتخلص منه، ولا يشد فيقتلها، سأجعلها حائرة، ولن أعطيها حريتها أبدا.

حملت المال، وضعت نصفه في المصرف وحملت النصف الأخر إلى أمي، وصلت إلى القرية مع مغيب الشمس، عانقتني أمي وبكت على حظي مع هذه الزوجة العاصية، سألتها عن أحوالها، أخبرتني انها تبحث عن عمل، أما فريد فلم تره أمي منذ أن غادرت المنزل قبل اسبوعين، عندما تركت البيت وذهبت إلى بيت أبيها، كنت قد وصلت إلى بيتي مستعجلا، طلبت إجازة عاجلة، عندما أخبرتني منى أنها لم تهرب، رغبت في تعنيفها وتوضيح حقيقة منى أمامها وأني على علم بكل ما يجري وساعتها فقط كنت سأحكم قبضتي عليها جيدا، وسأكسر كرامتها وعنفوانها إلى الأبد، ولكن من أين خرجت لي تلك البغيضة عائشة، ذهبت إلى بيت عائلتها وأنا في قمة الغضب وعنفت عائلتها، عندما خرجت

من هناك، عدت إلى بيتي والغضب يعتصرني، موقف أبيها وأخوتها من إبقائها هناك ضايقني وشعرت أنها تفلت من يدي، كان الأجدر بأبيها أن يمسكها من يدها ويعيدها إلي، لكنه لم يفعل، بلغ بي الغضب أن أمسكت بكل شيء أمامي في البيت وحطمته، لم تعد تعنينيني سلمى في شيء ولم أعد أتوق إليها، سأدمرها وسأحطمها.

لكن هي من دمرتني، أنا لم أطلب الكثير منها، كل ما طلبته أن تحترمني وتقدرني كزوج، كيف يمكن لأقرب إنسان إليك أن يكون هو مصدر عذابك؟ ومن تتمنى له أن يبقى، يتمنى لك أن تموت، وتعمى أنت عن أخطائه، وتتقبل غضبه وهو ينظر إلى كل تفصيلية دقيقة منك ليتخذها سلاحا ضدك،، كيف لم يدر بخلدي أن سلمى قد أخبرت أبا سمير عني؟ هل أستهنت به؟ أم أن القدر أراد أن ينتقم مني.

أعترف، لم أعمل لأبي سمير ذلك الرجل العجوز حسابا، أو أقيم له وزنا، لقد وضعت سلمى الأمر بين يديه، فتصرف كما لأب مقهور ومفجوع أن يتصرف، لقد طلب أن يكون مصيري بيده.

طلب ذلك من ماهر، ما كان على أبي سمير أن يفعل؟ بعدما أخبرته سلمى عني ووضعت تسجيلا لي بين يديه وأنا أصف مقتل سمير، كان دليلا لا يقبل الشك ولا التجريح، صُدم ماهر، كاد الغضب أن يفقده صوابه، ويفقده خطة الامساك بي، لكن أبا سمير طلب منه أن يهدأ، أراد أن يستدرجني إلى حيث عاش سمير مطاردا.

لذلك أتصل علي ماهر في الساعة العاشرة صباحا وطلبني للقاء مهم، قال لي أن هناك عملا يجب القيام به للفصيل وهو عاجل وضروري وسري أيضا، كلمة سري جعلتني أتأهب، وأتصل على من أعمل معهم، وذلك لأحصل على مال جديد، فأنا بصدد شراء أرض جديدة.

تأنقت وعطرت نفسي وذهبت إلى ماهر، قال لي:

- تعرف كم نثق بك، نحبك كما أحببنا سمير.

- أشكرك على تلك الثقة، وأتمنى أن أكون دائما عند حسن ظنك.

- أنت تعرف كم أحب سمير الفصيل وأنت هل تحبه مثلما أحبه سمير؟

- نعم، أنا أحبه أكثر.

- حسنا، الفصيل يحتاج إلى تبرعات، نحن بحاجة إلى ذلك

وقف تنفسي، أي تبرعات يتحدث عنها ولماذا أنا؟ لكن أنا الآن في وضع حرج، يجب أن أظهر ولائي للفصيل، فقلت:

- أنا تحت أمرك، كل ما أملك، هذا أن كنت أملك شيئا هو تحت أمرك

ضحك ماهر وقال:

- نعم أنت تملك

ضحكت بدوري وقلت:

- وما أدراك أنت؟

- سمعت أنك اشتريت أرضا، وهي لأبي سمير، نريد إعادة شرائها، نرغب أن نبني مقرا عليها.

- لا يمكنك البناء عليها، فالبناء فيها ممنوع فهي قريبة من المستوطنة.

أمسك بتلابيب قميصي وقرب وجهه إلى وجهي وعض على شفتيه وقال:

- لماذا اشتريتها إذن؟ آه، لماذا؟

أمسكت يديه ودفعته عني وقلت:

- وماذا يعنيك أنت؟

- أنت تخاطر بمركزك في الفصيل، أتعي ما فعلت الآن؟

راجعت نفسي سريعا إذا لا يمكنني أن أتراجع الآن، فأنا في وضع أحسد عليه، ومركز يمكنني من الحصول على معلومات كثيرة، وبالتالي أموال وفيرة، فقلت بسرعة:

- أعتذر، وسافعل ما تطلب

- حسنا كانت لدي النية أن أعطيك مبلغا مقابل الأرض، ولكن بعد تصرفك هذا، فلن أفعل؟

ثم أخرج ورقة من مغلف وهي ورقة بيع وشراء وطلب مني التوقيع عليها، كان الشاري هو أبو سمير، الذي خرج لاحقا من غرفة مجاورة، ووقف أمامي بعدها دخل حارسان أحداهما ضربني على رأسي والأخر شعرت به يلف حبلا حول جسمي.

لا أذكر بعدها شيئا، لقد فقدت وعيي تماما، لكن عندما استيقظت وجدت نفسي في كهف شبه مظلم، بدا مألوفاً هذا الكهف بالنسبة إلي، نعم أذكره، إنه المكان الذي سكنه سمير سابقا، لكن كيف أتيت إلى هنا، نظرت يمنة ويسرة، لم يكن هناك أحد، حاولت التحرك لكن يداي كانتا مكبلتين.

جال في ذهني صورة أبي سمير قبل ان أتلقى ضربة على رأسي، حاولت الحركة أو فك رباطي ولم أستطع لكن هناك شخصا وقف ليسد الضوء الداخل من باب الكهف، إنه هو، يقف هناك وينظر إلي.

لماذا الآن؟ كنت قد بدأت أعيش، بدأت أمتلك السلطة، ولم أعد ذلك الطفل المقهور والذي طالما كان بلا أمل، لماذا الآن؟

****

الفصل السادس عشر

إنه الشتاء، العمل يتقلص إلى النصف، نصف الوقت في المشغل نقضيه في خياطة بعض الملابس ونصفه الأخر في الحديث، نداء تخبرنا ان المدير قال لها: إن الحالة الاقتصادية للبلد سيئة، ومحلات كثيرة لم تعد تطلب البضائع المحلية، بل أن أغلبهم يفضلون شراء واستيراد البضائع الصينية، ذات النوعية الرديئة، والأسعار الرخيصة.

تنهدنا وقالت إحدانا:

– ألا يجب أن يكون هناك دعم للبضائع المحلية؟.

ردت نداء:

– أيضا هو يقول أنه سيعجز عن تأمين رواتبنا جميعا في ظل هذا الركود الاقتصادي

وقلة الطلبات، وهذا يعني انه سيقلص عدد العاملات، إذ لا يحتاج المشغل الآن إلى كل هذه الأيدي العاملة.

حالما قالت نداء ذلك، نظرت جميع العاملات الي، فأنا المرشحة الأقوى لعملية الفصل ممخ، الجديدة والأقل خبرة، وأنا أيضا توقعت ذلك، إذ لم يكن باليد حيلة فقلت:

- لا بأس من ترك العمل، فأنا أتوق إلى قضاء الوقت مع ابني فريد، اشتقت إليه كثيرا، أشعر أني لا أراه، وافتقدت ضحكاته وسقطاته أثناء المشي وكلماته الجديدة غير الواضحة والمكسورة الترتيب في الأحرف

ضحكت العاملات إذ رددت أمامهن بعض الكلمات التي لا يجيد فريد نطقها جيدا، ودعون الله أن يبقيه لي.

في طريق العودة أصابني اليأس والكمد وانقطاع الأمل، وهالتني رحلة البحث عن عمل من جديد، وتذكرت رغبتي في الاستقلال المادي، وتحمل جزء من مصاريفي ومصاريف فريد، حقا أنا لا أستلم مبلغا كبيرا من عملي الحالي، لكنه على الاقل يؤمن لي حاجاتي البسيطة وحاجات فريد من حليب وطعام وأشياء أخرى، وأيضا أساهم ولو قليلا في أعباء البيت من لوازم للأكل، حبات بطاطا من هنا أو رطل موز من هناك، نمت ليلتي أبكي، ولا أعرف ماذا أفعل؟ لا أريد أن أعود عالة على أبي، أو أحمل أخي سعداً فوق طاقته.

في صباح اليوم التالي، حضر المدير إلى المشغل في تمام الساعة العاشرة، كان يلبس حلة سوداء مع ربطة عنق خضراء، جال في المشغل وتفقد العمل، اقترب من كل طاولة ووقف أمام كل فتاة، نظرنا إليه من طرف خفي، بدا كمن يبحث عن كبش فداء، بعضنا أوهمته أنها تعمل بهمة ونشاط عله يفطن إلى أهمية بقائها، أنا عكسهن، كنت متاكدة أنه سيختارني للرحيل لذلك عملت بإدنى سرعة لي منذ بدأت العمل، ولمَ العجلة فليس للأمر أهمية الآن.

دخل إلى غرفته الزجاجية المواجهة للآلآت الخياطة، ووقف ينظر الينا وملامحه لا تُفسِرعن شيء كمن يغرق في تفكير عميق، كلنا في قلق وجزع، فبعضنا ستغادر اليوم، يبدو الأمر جليا وواضحا.

بعد مرور ثلث ساعة استدار وجلس إلى مكتبه ثم استدعى نداء وألقى إليها بتعليمات، خرجت نداء وجالت نظرها فينا ثم نادت على اسم العاملة الأولى، إنها «خديجة» من سكان قرية بعيدة، دلفت خديجة إلى غرفة المدير، ووقفت أمامه ورأسها إلى الاسفل، تمتم بكلمات لم نعلم ما هي اذ لا يمكننا سماع ما يجري هناك، خرجت وهي تبكي وتضم وجهها بين يديها، لم يحتج الأمر إلى تفسير إنها الضحية الأولى.

انتظرت دوري لأكون الثانية ولكن لم تكن أنا، بل كانت هداية ومن ثم عاملة أخرى، ومن ثم «ميادة » أكثرنا خبرة، بالطبع خرجت من الغرفة باكية ومن ثم توجهت إلي وقالت:

– إذا أبقاك أنت، وطردنا نحن، فعلا زمن عجيب.

لم أفهم أو أهتم لما تقول، هل يعني هذا أني لم أطرد، حملت متعلقاتها و فارقت المشغل و ليس كباقي العاملات اللواتي بقين إلى حين إنتهاء الدوام الرسمي، وفي طريق خروجها حدجتني بنظرة قاتلة.

في طريق العودة سألت نداء:

– هل أكتفى، أم سيكون هناك عاملات سيرحلن مع الغد؟.

– أتوقع أنه لن يكون هناك المزيد، لقد سألته ميادة هذا السؤال فأخبرها أنه مجبر لتسريح أربع فقط، إلى حين تحسن الحالة الاقتصادية وأنه سيتصل بهن إذا ما تم ذلك، لكن حقا العاملات منزعجات جدا.

- أكيد، لا شك في ذلك.

- أيضا هن منزعجات من أمر أخر، لماذا أبقاك؟.

- وما شأني بذلك، أنا لست مهملة في عملي، وأحاول جاهدة أن أتحسن، وأنا فعلا تحسنت كثيرا.

- هن يعتقدن أنني توسطت لك حتى تبقي.

رردت عليها بفرح:

- أحقا فعلت؟، أشكرك، ثم لا بأس نداء، دعيهن يقلن ذلك، فنحن على كل حال من بلد واحدة ورفيقات سفر، وأنا أستحق، فشكرا لك.

ضحكت نداء وربتت على كتفي وأنا حقا لم أهتم كثيرا بإستحقاقي البقاء أو عدمه، شيء لا يعنني، المهم أن لا أفقد عملي حاليا.

استأنفت نداء حديثها قائلة:

- لكن الحقيقة، أنا لم أفعل، بصراحة أيضا هن يلمحن إلى شيء أخر.

- ما هو؟ قوليه.

بدأت تتكلم وبدت مضطربة قليلا فقالت:

- هن يقلن، يا ربي، أقصد أنهن لاحظن أن المدير كان نادر الحضور إلى المشغل، أقصد أنه كان يتفقد المشغل من خمس الى ست مرات في الشهر، إذ كان يثق بي ثقة عمياء، ولكن منذ أتيت أنت فأنه تقريبا يأتي يوميا.

- لا أفهم ما ترمين إليه، لكن ليس ذنبي أنه لم يعد يثق بك، أرجو أن لا تلمحي إلى شيء أخر لتدفعنني إلى ترك عملي بسبب هواجس وأفكار لا أساس لها من الصحة.

- ليس قصدي يا سلمى، أنا أقول فقط ما يقلنه باقي العاملات، إنهن يسألن عن السبب إذ أن لديه الكثير من المشروعات ومحلات أخرى متفرقة يعتني بها.

– ربما خسر فيها ولم يعد له سوى المشغل، يأتي إليه ويكتم على أنفاسنا، أنا شخصيا لا أشعر براحة وهو يقف داخل الغرفة الزجاجية يراقبنا طوال الوقت.

– حسنا، ربما، لا عليك، أعتذر عما قلت.

ساد الصمت بيننا وفي سريرتي قلت «ها هن يعدن إلى طبيعتهن الشكاكة والنمامة، يبدو أني سأعتزلهن، كم يملن إلى إختلاق القصص وتصوير الأوهام وصنع الشائعات، ربما غرضهن دفعي إلى الاستقالة وترك العمل، لكن لا والله لن يكون».

زاد الطين بلة ما حدث بعد خمس أيام من تسريح العاملات، حيث فاجأنا المدير بدعوتنا جميعا إلى طعام الغذاء في ربوع متنزه جميل في بلدة تسمى الباذان، وهي منطقة منخفضة دافئة ومليئة بالماء، والمناسبة هي نجاح أخته في الجامعة وتخرجها.

جلسنا في فترة استراحة الغذاء نتبادل الأحاديث قالت إحداهن:

– لم يسبق له أن دعانا من قبل، أذكر عندما أجريت لوالدته جراحة في الأمعاء قبل ست أشهر، اكتفى بتوزيع الحلوى، و نداء هي من قامت بفعل ذلك، حتى أننا لم نره حينها.

كانت تقول ذلك وتنظر إلي وتضحك، رغبت وقتها في قطع أسنانها الكبيرة التي تخرج من فمها، واستمرت تضحك وتأكل وتتكلم أيضا، قلت بحدة:

– أنا شخصيا لن أذهب، وأفضل أن أكسب يوما وأعود إلى البيت باكرا وأجالس ابني فريداً.

نظرت إلي من جانبها وغمزت بعينها وقالت بطريقة استفزازية :

– سيخيب أمل المدير إن لم تأت.

لحظتها لم أجد بد من إلقاء طعامي جانبا، وهممت أن أطبق على عنقها، لكني أمسكت بها وهززتها وقلت صائحة:

– ماذا تقصدين وإلى ماذا تلمحين؟ أيتها البلهاء.

أمسكت بي نداء وأبعدتني عنها بكل قوتها، ثم دفعتني إلى زاوية بعيدة، أما هي فألقت برأسها إلى الأمام وبدات تسعل لقد علقت لقمة في حلقها، وتجمعن حولها العاملات الأخريات، إحداهن ضربتها على ظهرها وأخرى أحضرت لها الماء، واحدة أخرى نظرت إلي نظرة شرزاء، وتمادت إلى حد شتمي، أيقنت أني غير محبوبة لديهن.

تمنيت لو كانت اختنقت، لقد ذقت ذرعا بملاحظتها وتلميحها، فلم يسبق لي أن كلمت المدير سابقا سوى التحيات العادية وسؤاله عن حالي كما يفعل معهن كلهن عند جولته التفتيشية في الجناح كما أطلقن عليها.

قالت نداء بغضب:

– ماذا تظنين نفسك فاعلة؟ هل جننت؟

– إنها تثير غضبي، ألم تسمعي ما قالت؟

– دعك منها، إنها كثيرة الكلام.

تنفست بسرعة وكتمت غضبي، بعدها لم أكلمها بتاتا، حتى التحية لم ألقها عليها، ولم أبادل المدير تحيته الصباحية في اليوم الذي تلا المشاجرة، وأصررت على عدم الذهاب إلى الغذاء، كان الاتفاق أن يأخذنا السائق إلى المكان في تمام الساعة الثانية عشر من ظهر اليوم المقرر، حيث سيأتي المدير مباشرة إلى المتنزه، ولن يحضر صباحا إلى المشغل، ذهبن كلهن بينما نزلت أنا في أقرب نقطة إلى بيتي ومن هناك تدبرت طريق عودتي.

في اليوم التالي، حضرنا إلى المشغل كالمعتاد واتكأت إلى الآلة خاصتي وبدأت العمل، حضرت هي متأخرة، مرت من جانبي ثم أسندت كوعها إلى طاولتي وقالت:

– لقد قضينا وقتا ممتعا، تمنينا لو أتيت، لقد مكثنا وحدنا، فالمدير حضر لمدة ساعة وغادر، لا تحسبي أنه جلس معنا بل جلس وحده منذ البداية، لكنه بدا متضايقا على عكس الدقائق الأولى من مجيئنا، حيث شعرنا أنه يبحث عن وجه ما توقع وجوده، وبدت عليه خيبة الأمل أنه لم يجده.

أمسكت نفسي بصعوبة ورجوت الله أن توافيها المنية الآن وحالا وأمامي، وتصنعت عدم الاهتمام بملحوظتها، ولم ألق بالا لما تقول، إن كنت سأستمر في هذا العمل، فيجب علي أن لا التفت الى كل كلمة تقال او كل شعور بالغضب، فالحياة ليست وردية وهناك الكثير من العقبات التي ستواجهني، علي ان أتقبل ذلك وأن أتصالح مع نفسي ومع الناس، فقلت بقلة إكتراث:

– لا يعنني الأمر، من الجيد أنك قضيت وقتا ممتعا.

لم أعد بعد ذلك احتمل التعليقات والملحوظات عند كل لفتة من المدير اتجاهي، أو مرروره بالقرب من آلة الخياطة خاصتي، ففكرت أن أترك العمل وجال في خاطري المال الذي أودعته عند منى، فقد يعينني على شراء الة خياطة متطورة، فأتمكن من العمل داخل البيت، فاتصلت عليها وحددت موعدا للقائها.

طلبت إذنا بالمغادرة من نداء، أخبرتها منذ الصباح برغبتي بالمغادرة في تمام الواحدة والنصف ظهرا، لكن نداء لم تستطع أن تقرر إذا كان يجب عليها منحي ذلك أم لا، حيث من سوء الحظ أن المدير لم يغادر المشغل قبل الواحدة ظهرا كما جرت العادة.

اقتربت من نداء و قلت لها:

– نداء، أخبرتك منذ الصباح بحاجتي إلى المغادرة، لدي دين من المال يجب إحضاره.

– لا أعرف ماذا أفعل، لو غادر باكرا لمنحتك الإذن، لكنه ما زال هنا.

– ماذا لو أخبرته، أرجوك.

– حسنا، سأقول له وأمري إلى الله.

دخلت نداء إلى الغرفة الزجاجية ومن ثم خرجت بعد عشر دقائق لتقول لي:

– يريد أن يراك، توجهي إلى مكتبه.

ومن ثم أدارت ظهرها لي وعادت إلى مكان عملها.

بدأ قلبي يدق بسرعة كبيرة لم أعهدها من قبل، لقد تخيلت ماذا سوف يقلن باقي العاملات الآن، لم أعرف كيف يجب أن أتصرف، هل أرفض الذهاب؟ أم التزم بالطاعة لرب العمل، فقدت السيطرة على أطرافي فبدات يداي ترتجفان دون إرادة أو وعي مني.

توجهت إلى الغرفة الزجاجية وكأني مخدرة، طرقت الباب بضعف، فجأني ردا من خلف الباب أن أدخل

ألقيت التحية وأنا تقريبا أتلعثم،، لكنه لم يرد علي، وبقي صامتا، لم أعرف ماذا أفعل أو أقول، جال في خاطري أنه لم يسمع تحيتي فأعدت إلقائها، إلا أنه أيضا لم يرد فلزمت الصمت ولم أنطق ببنت شفه.

قطع الصمت وقال:

– العين بالعين والسن بالسن والباديء أظلم.

ثم رفع نظره الي وهز رأسه وأبتسم ابتسامة خفيفة لم تظهر أسنانه، فهمت أنه يلمح إلى معاملتي بالمثل لعدم ردي التحية عليه عند إلقائها، ارتبكت وحاولت السيطرة على رجفة جسمي، فقلت له:

– أريد أن أغادر، لدي أمر مهم يجب القيام به.

رد علي بعدم مبالاة:

– غادري إذن، أنا أيضا سأغادر الآن، يمكنني ايصالك إذا كنت ذاهبة في المسارعينه الذي سأسلكه، إلى أين أنت ذاهبة؟.

– لا، ليست مشكلة، يمكنني الذهاب وحدي، لا داعي لذلك.

– حسنا، ولكن المواصلات تكاد تكون معدومة في هذه المنطقة.

– يمكنني تأمين ذلك.

– حسنا، إنها الواحدة ظهرا يمكنك الخروج الآن.

– شكرا لك.

خرجت من مكتبه وتوجهت إلى حقيبتي وحملتها، بعض العاملات بدأن الهمس، اعتقدن للوهلة الأولى اني قد تركت العمل وأنه قد طردني منه.

وقفت في انتظار مركبة ما يزيد عن نصف ساعة، حوقلت فيها عشرات المرات، ولعنت حظي مئة مرة ومشيت مسافة وكلما سمعت صوت سيارة أتية من خلفي التفت علها تكون مركبة عمومية إلا أن أملي كان يخيب.

مشيت إلى أن وصلت الساعة الثانية ظهرا، نظرت إلى ساعتي وها هي مرت ساعة كاملة منذ خروجي من المشغل، ولم أصل إلى نصف المسافة التي يجب أن اقطعها حتى أتمكن من مقابلة منى في موعد مناسب، لقد دُمرت أعصابي، حتى شعرت برغبة قاتلة أن أجلس على قارعة الطريق وأبكي، وأصبحت أمشي بخطى سريعة وغاضبة وأتمنى لو تحضر طائرة فتحملني إلى حيث أريد دون هذا التعب، ولم أرد الالتفات إلى تلك المركبة التي تصدر صوت تنبيه بجانبي، إلا أن المركبة استمرت بالمسير ورائي لفترة وجيزة.

تسمرت في مكاني ونفخت رئتاي بالهواء استعدادا للغضب الذي سيلي ذلك، وما أن استدرت حتى هدأت ثورتي إلى الصفر، وحل مكانها الصمت، إنه المدير شعرت بالانهزام وبإنتصاره، أنزل نافذة المركبة الزجاجية وقال:

– قلت لك، لن تجدي مواصلات بسهولة، هل ستركبين، ستتحرك حافلة المشغل بعد ساعتين، ربما ستركبين معهم حينها.

وازنت الأمور في عقلي ثم قررت أن علي أن أفعل ذلك، فقد يكون على حق.

فتحت باب المركبة الخلفي ودلفت إليها، نظر إلي وقال:

– يبدو أني أصبحت سائقاً خاصاً الآن.

لم أعلق بشيء ولم أتكلم بتاتا، بعد عشر دقائق من مسير السيارة، سأل:

– لما لم تحضري إلى دعوة الغذاء؟.

أيضا لم أرد، لم أشا أن أفتح موضوعا أو مجالا للحوار، إلا أني شعرت بقلة ذوق مني، فقلت بعد خمس دقائق من سؤاله:

– لم أشا أن أفعل ذلك.

لم يطرح المزيد من الأسئلة، أو يبادر إلى الحديث معي وخيم الصمت على الرحلة حتى وصلنا إلى مدينة نابلس، نزلت في أقرب مكان من منزل منى وشكرته على توصيلته.

وصلت إلى منزل منى في تمام الساعة الثالثة، سلمت عليها وعلى والدتها، بعد أن تناولنا طعام الغذاء سألتها عن المال، أخبرتني أنها أعطت المال كاملا لعزيز، لقد هددها وضغط عليها، ولم تجد بد من اعطائه إياه، خاصة أنها لم تعد تعلم عني شيئا، سألتها إن كانت تعرف مكانه، فأخبرتني بالنفي.

خرجت من عندها وأنا أشعر بتحطيم كامل في قلبي، لقد فقدت كل شيء.

لم أذهب إلى العمل يومين متتاليين، قالت لي نداء أن المدير سأل عني فأخبرته إن ابني مريض وقد أبدى اندهاشا، إذ لم يكن يعلم أني متزوجة ولدي ولد، وزاد استغرابه عندما علم أني شبه مطلقة ثم قالت لي:

– أنه يقول أيضا، ستفقدين عملك إن لم تعودي خلال ثلاثة أيام.

لم أجب وطلبت من نداء شرب القهوة، ومرت الثلاثة أيام ولم أبرح مكاني، لم يكن لدي القدرة على الحركة أو الرغبة في التحرك، كنت من اليأس والحزن والكمد بحيث لم أرغب حتى بالحديث وهكذا ضاعت فرصتي، فالأمور التي تحدث في غير أوانها لا تجلب الفرح بل الوجع والألم.

****

الفصل (الأخير)

- يمكنك أن تسافر يا بني إلى مكان أخر، تحصل على وظيفة جيدة وتحاول اكمال الدراسات العليا.

- لا مكان يناسبني يا أبي في هذا العالم، ولا مكان سيعطيني السعادة، الجنة فقط هي المكان الذي سيناسبني وسأسعى جاهدا لأصل إليها.

تلك كانت كلماته في أخر مرة رأيته فيها قبل أن يتم اغتياله لاحقا، أن كلا منا يختار طريقه ويعرف أين يجد جنته، لقد فرغ قلب ابني من كل الدنيا فلم يعد متعلقا بها، أو ما فيها يهمه، لقد علق أحلامه بما هو أكبر من عيشة جميلة أو سيارة فارهة لقد ربط قلبه بالجنة، فكانت الحياة بالنسبة إليه رحلة انتظار شاقة إليها.

أما أنت يا عزيز فقد نسيت أن هذه الأرض ليست هي الجنة ولن تكون يوما،

فلا جنان على الأرض، ومهما حاولت أن تكون فيها سعيدا فستسقط في براثن حزنها وأوهامها، الآن سأتركك لضميرك، لمصيرك الأسود لعذاباتك لاحتقار الناس لك، لا شيء سيعيد لي سمير، لكن أرجو الله أن أقابله هناك، حيث لا لغوا ولا تأثيما.

- عم أبو سمير، لا تتركني هنا أرجوك.

- ماذا أفعل بك إن عدت معي إلى الحي سيقتلونك، وأسيادك رفضوك، أصبحت الآن بالنسبة إليهم ورقة مكشوفة ومحروقة لا فائدة منها، بل أصبحت عبئا ثقيلا يجب التخلص منه.

- لكن ماذا أفعل في هذا الكهف المظلم الموحش.

- لقد عاش فيه سمير أشهراً من الوحدة والبعد والمطاردة في سبيل قضية عادلة وشتان ما بين تشردك وتشرده، ماذا هل أنت الآن حزين ووحيد وخائف؟ ألم يدر بذهنك أن سميراً كان أيضا وحيداً وخائفاً؟، ألم يحركك ضميرك؟عندما أضفت إلى وحدته وبعده وخوفه طعنة خيانتك، ألم تشفق عليه وهو بين أيديهم؟ أم حسبته ليس بشرا، لا أستطيع أن أسكت هذا الغيظ في قلبي، لقد كان ابني الوحيد، ابني الذي لم يكن يوما لك سوى أخ وصديق وفي، أنا لا أستطيع قتلك بيدي، ليست لدي القدرة على ذلك، سأذهب الآن؟ ربما تنجو، أذكرك، سمير أحب رفقتك، أردتكما أن تبقيا سويا دائما وأبدا، لذلك إبقَ هنا حيث عاش فترة من الزمن وحيث مات.

قلت ذلك بينما الدموع تتساقط من عيني، سمير، يا بني ربما تكون غلطتي اني لم أختر لك اصدقاء جيدين، أتعرف يا سمير، كان عزيز يبكي، يبكي ويتوسل لي أن أرجعه معي أن أفك قيده ليعيش، أتساءل كيف كنت أنت؟

هل توسلت إلى عدوك أن يبقيك على قيد الحياة؟ لا أتوقع أنك فعلت ذلك، ما كنت لتفعل ذلك.

ثم غادر أبو سمير الكهف تاركا عزيزاً قابعا فيه لا رفيقا ولا سندا.

مرت سنة وأبو سمير لم يسمع عن عزيز شيئا ولا يعرف ما حل به هل أكلته الضباع؟هل خرج وسافر ورحل؟ لكنه لم يكن ليهتم كثيرا، إن كل همه حاليا أن يتمكن من المشي إلى المسجد لإداء الصلاة، فقد بدأت قواه تخور وكذلك زوجه حليمة بدأت تفقد قواها هي الأخرى، وكأنهما ينتظران الموت بشوق فقد اشتاقا جدا إلى سمير ولديهما أملا أن يكونا معا في الجنة.

- النهاية -